مصر
2020-10-26

تفكيك المشهد اللبناني
عوامل الصراع وأطرافه

الباحث: أنس محمد خضر

منتدى العاصمة
للدراسات السياسية والمجتمعية

@CAPITALFORUM1

المحتوي

المقدمة 2

أولًا: عرض تاريخي موجز 4

١- لبنان في عهد الخلافة العثمانية (منتصف القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين)..... 4

٢- لبنان في عهد الاستعمار الفرنسي 6

٣- الجمهورية المستقلة واحتكار العنف والسلاح 7

٤- دخول الفدائيين الفلسطينيين إلى لبنان 9

5- الحرب الأهلية: أطراف الصراع واللاعبون الاقليميون 10

٦- اتفاق الطائف 13

ثانيًا: ما بعد اتفاق الطائف 15

١- الساحة المسيحية 15

٢- الساحة السنية 16

٣- الساحة الشيعية 17

4- الساحة الدرزية 19

ثالثًا: اغتيال رفيق الحريري وتداعياته على المشهد 20

رابعًا: ملف سلاح حزب الله وحرب تموز 2006 21

خامسًا: أحداث ٧ أيار وهيمنة حزب الله 23

سادسًا: الثورة السورية وتداعياتها على المشهد اللبناني 25

سابعًا: الانهيار الاقتصادي 28

الدور الفرنسي 32

ملف ترسيم الحدود مع العدو الإسرائيلي 33

ثامنًا: الهاجس الأمني 33

الخاتمة 34

المقدمة

يعد لبنان نموذجًا فريدًا في العالم العربي من حيث تعدد طوائفه مقارنة بمساحته الصغيرة، إضافة إلى موقعه على ساحل البحر الأبيض المتوسط وبالتحديد على الحدود الشمالية لفلسطين المحتلة مما يجعله على خط التماس الأول في مواجهة العدو الصهيوني، هذه العوامل وغيرها جعلت من لبنان ساحة صراع مفتوحة تعصف بها الأزمات والاضطرابات الداخلية فضلا عن الحروب التي يشنها العدو الصهيوني انطلاقًا من الحدود الجنوبية.

المجتمع اللبناني مجتمع طائفي مهتم بالسياسة ومستجداتها، تكثر فيه الأحزاب والجماعات من مختلف الأديان والطوائف والمذاهب، وهو وإن تغنَّى ساسته وزعماؤه بعبارات اللاطائفية والوحدة الوطنية والعيش المشترك، إلا أن هذه الشعارات تسقط عند أول استحقاقٍ جدي تستشعر فيه طائفة ما بالخطر على مصالحها وتهديد حقوقها أو امتيازاتها. هذا الجو المشحون دفع بجميع الأطراف للتعبئة الطائفية والبحث عن حليف خارجي وقوة إقليمية أو دولية تكون بمثابة الراعي الرسمي لحقوقها والمدافع عن مصالحها ووجودها. فطالب النصارى بالحماية الغربية، وتمسك السنة بالعمق الإسلامي السني من حولهم، وارتبط الشيعة بالمشروع الإيراني المتمثل بولاية الفقيه، أما سائر الأقليات كالدروز والعلويين مثلًا فتركزت سياستهم على المناورة بين أطراف الصراع وتبديل المواقع والتحالفات السياسية وفق ما تقتضيه مصالحهم.

دفع اللبنانيون ثمن هذه الاصطفافات الطائفية حربًا دامت خمسة عشر عامًا خرج الجميع منها مستنزفين إلا حزب الله المرتبط بإيران والذي دخل الساحة اللبنانية من بوابة مقاومة الاحتلال الصهيوني لجنوب لبنان مما أضفى على وجوده في مراحل معينة شرعية وطنية وقبولًا شعبيًّا، وهو الأمر الذي أدخل لبنان لاحقًا مرحلة جديدة من الاضطرابات والأزمات العسكرية والأمنية والسياسية والاقتصادية.

تهدف هذه الورقة البحثية لاستعراض المشهد اللبناني على امتداد مراحله السابقة منذ اتفاق الطائف الذي أنهى الحرب الأهلية حتى انهيار الاقتصاد اللبناني مطلع عام 2020 في محاولة لتقديم رؤية شاملة للمشهد اللبناني بالمرور على المحطات الرئيسية والفاعلين الرئيسيين.

خريطة لبنان

لبنان بلد صغير تبلغ مساحته ١٠٤٥٢ كلم٢ تحده من الشمال والشرق سوريا ومن الجنوب فلسطين المحتلة ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط، ويبلغ عدد سكانه 5,5 ملايين نسمة[1] يتوزعون بين طوائف مسيحية ومسلمة وأقلية يهودية وفقًا للجدول التالي:

الطائفة	1932 (مقيمون وغير مقيمين)	2018 (مقيمون وغير مقيمين)	الزيادة	نسبة الزيادة
موارنة	351,197	934,704	583,507	166.1%
روم أرثوذكس	133,343	329,865	196,522	147.4%
روم كاثوليك	76,336	213,193	136,857	179.3%
أرمن أرثوذكس	28,072	94,780	66,708	237.6%
أرمن كاثوليك	6,434	22,344	15,910	247.3%
سريان أرثوذكس	2,820	21,447	18,627	660.5%
سريان كاثوليك	3,115	13,105	9,990	320.7%
بروتستانت	4,600	20,668	16,068	349.3%
كلدان أرثوذكس وكلدان كاثوليك	744	3,594	2850	383%
أقليات مسيحية	6463	33,275	26,812	414.8%
مجموع المسيحيين	614,397	1,686,975	1,072,578	174.5%
سني	194,305	1,721,853	1,527,548	786.2%
شيعي	166,545	1,743,718	1,576,633	946.7%
درزي	62,084	295,664	233,580	376.2%
علوي	4,830	55,677	50,847	1052.7%
مجموع المسلمين	431,767	3,821,717	3,389,950	785.1%
إسرائيلي	4003	4,805	802	20%
المجموع	**1,046,164**	**5,508,692**	**4,462,528**	**426.5%**

المكونات السكانية للبنان

[1] - بالأرقام: عدد اللبنانيين بحسب الطوائف، موقع القوات اللبنانية، 2019

شكَّل المسيحيون في العام 1932 نسبة 58.7% من اللبنانيين مقابل 40% مسلمون، أما في العام 2018 فقد تبدلت هذه النسب وانخفضت نسبة المسيحيين إلى 30.6% وارتفعت نسبة المسلمين إلى نسبة 69.4%، في حين يبلغ عدد اليهود 4805 فردا. ويتكون لبنان من عدد من المحافظات والأقضية وفقا للخريطة التالية:

أولًا: عرض تاريخي موجز

١- لبنان في عهد الخلافة العثمانية (منتصف القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين)

شهدت ما يعرف بإمارة جبل لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين اضطرابات وأزمات متعاقبة في ظل حكم الخلافة العثمانية، تمثلت في الصراع بين الدروز والمسيحيين الموارنة، وقد أخذ هذا الصراع طابعًا طبقيًّا حيث مثل الدروز -بزعامة آل جنبلاط- طبقة الإقطاعيين الريعيين المتحكمين بطبقة العمال المسيحيين الذين كانوا يشعرون بالظلم والاستغلال، فكانت الكتلة الدرزية تتمتع بامتيازات اجتماعية - اقتصادية ميزتهم عن المسيحيين الذين بدأوا منذ ذلك الحين بالتذمر من هذا الحال. غير أن المسيحيين عملوا على توسيع نفوذهم بشكل متسارع من شمال جبل لبنان وحتى جنوبه مستغلين النخبة المالية التجارية والعمالية التي تكونت منها الكتلة المسيحية في مقابل الدروز الإقطاعيين غير المنتجين. وعلى إثر الصراع الدموي بين الدروز والمسيحيين استطاع المسيحيون قلب المعادلة وانهار نظام المتصرفية (ذو الركيزة الدرزية) ودخل لبنان مرحلة التمثيل السياسي الطائفي (نظام القائم مقاميتين) عام ١٨٤٣م الذي قسم جبل لبنان إلى منطقتي نفوذ وفاقم النزاع حول هوية الجبل. كان لهذا الواقع فيما بعد أثرا بالغا في تأسيس النفسية المسيحية التي تعتبر نفسها فئة أولى على حساب سائر الطوائف في لبنان. كانت فكرة التقسيم الإداري لجبل لبنان بين المسيحيين والدروز تسوية اقترحها

المستشار النمساوي ميترنيخ[2] بين البريطانيين والعثمانيين من جهة - الداعمين للدروز- والفرنسيين الداعمين للمسيحيين ولمطلبهم بالحصول على حكم ذاتي. غير أن نظام القائم مقاميتين لم ينهِ الصراع على (هوية الجبل) فاشتعلت مجددًا عمليات القتل الجماعي والتهجير بين الدروز والمسيحيين لتُخمَد حينًا ثم تعود، فيما حافظت فرنسا في تلك الحقبة على دورها كراع رسمي لحقوق المسيحيين، ولعبت دورَ الوسيط بين البطريركية والعثمانيين في محاولة منها لإنجاح التمثيل الرسمي للمسيحيين في جبل لبنان طمعًا في تعميم هذا النموذج على كافة مناطق السلطنة العثمانية ذات الوجود المسيحي في إطار سعيها لتأسيس مناطق نفوذ لها في المشرق. ومع نهاية القرن التاسع عشر كان التوزيع الديمغرافي لجبل لبنان قد انقلب نهائيًّا لصالح أغلبية مسيحية، مارونية تحديدًا، وازداد تمركز الموارنة في القطاعات الاقتصادية المميزة (التجارة والخدمات) مع توسع السيطرة السياسية المسيحية مستفيدين من النزاع الذي نشب بين زعامتي الدروز (آل جنبلاط وآل أرسلان) .

حصل كل هذا في ظل ضعف الخلافة العثمانية عقب خروجها مهزومة من حربها مع روسيا (١٨٧٧ - ١٨٧٨)، في وقت كانت فرنسا وبريطانيا قد بدأتا بالتفكير في تجزئة السلطنة العثمانية في إطار استراتيجية شاملة للمنطقة بأسرها تدعم مصالحهما. بطلب من باريس، وضع الملحق العسكري الفرنسي في بيروت خطة لاحتلال سوريا وفلسطين يكون الساحل اللبناني وجبل لبنان خلالها بوابتهم نحو الاحتلال[3]. كان المسيحيون الموارنة في لبنان يشكلون بالنسبة لفرنسا طليعة جيشها لاحتلال جبل لبنان.

وفي مطلع القرن العشرين نشطت التيارات القومية في المشرق فرفعت شعارات القومية العربية، ودعت لما أسمته بالإصلاحات في نظم السلطنة العثمانية. وقد شهدت تلك الفترة تحركات عدة من مؤتمرات وندوات وتشكيل لجان إصلاحية، كان أبرز تلك التحركات (المؤتمر العربي الأول) المنعقد في باريس والذي جمع مختلف التيارات القومية العربية، وبين ١٧ و٢٣ حزيران/ يونيو ١٩١٣ حضر المؤتمر مندوبون عن سوريا والعراق وفلسطين وبيروت وجبل لبنان إضافة إلى لجان من (فرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية). وقد تباحث المجتمعون في العديد من المطالب الإصلاحية مؤكدين على كونهم مواطنين عثمانيين. إلا أن خلافًا نشب بين المجتمعين على إثر مطالبة بعض المندوبين المسيحيين من جبل لبنان الاستعانة بخبراء ومستشارين أجانب للمساعدة على تنفيذ الإصلاحات الأمر الذي أثار حفيظة الآخرين الذين رأوا في ذلك

[2] - فواز الطرابلسي، تاريخ لبنان الحديث، الطبعة الأولى (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، فبراير ٢٠٠٨)، ص ٦٤.

[3] - المرجع السابق، ص ٨٦.

محاولة لاستجلاب التدخل الأجنبي ضد الحكم العثماني[4]. كانت تلك إرهاصات صراع لاحق بين القوميين العرب -الذين هم في الأغلب من المسلمين- ودعاة الحماية الغربية -المسيحيين الموارنة على وجه التحديد- والذي سيرسم خارطة الصراع في لبنان طيلة القرن العشرين.

٢- لبنان في عهد الاستعمار الفرنسي

لبنان في حدوده المعروفة الآن لم يكن له وجود في التاريخ، فهو نتاج عملية التجزئة (الفرنسية – البريطانية - واتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦- للمشرق العربي عقب هزيمة السلطنة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وفق ما تقتضيه مصالح باريس ولندن، حيث أضيفت إلى حدود جبل لبنان المدن الساحلية (بيروت، صيدا، صور وطرابلس) وأربعة أقضية عثمانية سابقة هي حاصبيا وراشيا وبعلبك وعكار. وفي الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٢٠، أعلن الجنرال غورو إنشاء (دولة لبنان الكبير) في ظل الاستعمار الفرنسي. رفض المسلمون اللبنانيون هذا الإعلان مطالبين بدولة عربية مستقلة والوحدة مع سورية، واندلعت موجة من أعمال العنف ضد الفرنسيين طالت كذلك المسيحيين في قراهم في رد فعل على اعتماد الفرنسيين على فئات من المسيحيين في احتلال لبنان.

صحيح أن قطاعات من المسيحيين رفضت الاستعمار، واصطف بعضهم مع القوميين العرب، إلا أن الجناح المسيطر على الساحة المسيحية آنذاك كان الجناح الأكثر تطرفًا والذي يرفع شعار الحماية الفرنسية ويدعو إلى ضم لبنان المسيحي إلى فرنسا على اعتبار أن لبنان ملجأ مسيحي تميزه هويته الفرنسية عن الهوية العربية والإسلامية. ويعتبر البطريرك إلياس الحويك أحد أبرز رموز هذا الجناح حيث رأى في لبنان (الامتداد البعيد لفرنسا) كما يذكر في إحدى مذكراته إلى الخارجية الفرنسية[5].

استطاعت فرنسا شيئًا فشيئًا تطبيع علاقة الطوائف اللبنانية معها، إلا أنها بقيت مرتابة من موقف الأكثرية السنية المتمردة في كل من سوريا ولبنان الكبير، وحذر بعض المسؤولين الفرنسيين من خطورة ضم المناطق المسلمة من طرابلس والبقاع وعكار إلى لبنان لأنها تحمل خطرًا يهدد استقرار الدولة المسيحية المقبلة. واعتبر رئيس الوزراء الفرنسي أريستيد بريان أن فصل طرابلس عن لبنان الكبير سوف يؤمن

4 - الطرابلسي، ص ١٢٢.

5 - إميل شاهين، التكوين التاريخي لنظام لبنان السياسي الطائفي، الطبعة الأولى (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٥)، ص٢٨.

لمسيحي لبنان أكثرية عددية[6] وأقره على ذلك (هنري دي جوفنيل)[7] الذي اقترح إعادة ضم طرابلس والمناطق المسلمة من البقاع وعكار إلى سورية بهدف تخفيض عدد السنة لأن السنة على حد تعبيره لا يعتبرون أنفسهم لبنانيين بل مسلمين، غير أن المصالح الاقتصادية للاستعمار المتمثلة بالحفاظ على مركز بيروت الاقتصادي القوي حال دون ذلك حيث يمكن لطرابلس ومرفئها أن تنافس مرفأ بيروت فيما لو تم ضمها لسورية[8]. وبدأت الاصطفافات المذهبية تتضح شيئاً فشيئاً منذ ذلك الحين.

كان الموقف الفرنسي في لبنان قد وصل إلى أسوء حالاته بفعل الضغوطات الشعبية والدولية، حيث كان التسابق بين فرنسا وبريطانيا للسيطرة على نقاط القوة في الشرق على أشده، فكانت بريطانيا تضغط على فرنسا وتدعم اللبنانيين المطالبين بالاستقلال. وبفعل عوامل عدة وضعف الموقف الفرنسي دوليًّا أعلن الفرنسيون انتهاء الانتداب الفرنسي على لبنان في ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٣. وشهد لبنان في تلك الفترة صياغة (الميثاق الوطني) بين الزعيم المسيحي بشارة الخوري والزعيم المسلم رياض الصلح، والذي تم بموجبه التأكيد على الأسبقية المسيحية السياسية لقاء تخلي المسيحيين عن المطالبة بالحماية الفرنسية، فيما يتخلى المسلمون عن فكرة المطالبة بالوحدة مع سوريا لقاء مشاركتهم في تسيير شؤون البلاد.

٣- الجمهورية المستقلة واحتكار العنف والسلاح

انطلقت الجمهورية اللبنانية المستقلة وفق دستور يقوم على فصام أساسي، فمن جهة يؤكد الدستور على المساواة السياسية والقانونية والمدنية بين اللبنانيين، إلا أنه من جهة أخرى يؤكد على عدم مساواتهم السياسية والقانونية والمدنية كونهم ينتمون إلى جماعات دينية مختلفة تتقاسم حصصًا متفاوتة من السلطة السياسية والوظائف العامة، فطغت الأسبقية السياسية المسيحية على المشهد السياسي اللبناني للجمهورية المستقلة، حيث يحوز رئيس الجمهورية (المتفق على كونه مسيحيًّا مارونيًّا عرفًا) على صلاحيات استثنائية أشبه ما تكون بحاكم فردي أو ملك جمهوري.

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي عاشه لبنان عقب الاستقلال، إلا أن التعبئة الطائفية كانت المسيطرة على المشهد، حيث أدى الاحتكار المسيحي الماروني للمشهد السياسي وللسلطة التنفيذية

---

6 - الطرابلسي، ص ١٤٤.

7 - رابع مفوض سامي فرنسي على سوريا ولبنان إبان الانتداب الفرنسي للمنطقة (١٩٢٥- ١٩٢٦).

8 - الطرابلسي، ص ١٤٥.

والتشريعية إلى تهميش الدور السياسي المسلم، وأدى ذلك إلى تأزم العلاقات الطائفية أكثر في وقت انجذب الشارع المسلم إلى خطاب التيار الناصري المعادي للغرب.

كان الصراع الدولي بين المعسكرين الغربي والشرقي على أشده، وعلى إثره انقسم المشهد العربي بين منحاز للمعسكر الغربي بقيادة أمريكا وآخر منحاز للمعسكر الشرقي بقيادة الاتحاد السوفييتي. كان لبنان في خمسينيات القرن العشرين برئاسة كميل شمعون يتجه نحو المعسكر الغربي، وقد جذب لبنان اهتمام أمريكا لما تتمتع به من موقع استراتيجي في مواجهة القومية العربية الصاعدة ولدوره الاقتصادي باعتباره مصبا للنفط ومركزا لمعظم الشركات والوكالات الأجنبية في المنطقة. هذه العوامل جعلت من لبنان أحد (المواقع الأمريكية) التي يتعين الدفاع عنها في مواجهة تيار القومية العربية الصاعد.

ومع استشراء الفساد الاقتصادي والاجتماعي في عهد الرئيس شمعون واختزال المشهد السياسي بشخص الرئيس المتسلط المستفرد، انقسم الصف المسيحي بين مؤيد للرئيس ومعارض له، الأمر الذي أضاف للمعارضة ذات الأغلبية المسلمة فريقًا سياسيًّا مسيحيا يرى في الرئيس شمعون وسلطته فسادًا يجب إيقافه. ومع اعتزام الرئيس شمعون التمديد لولايته وتأزم المشهد السياسي، اندلعت الثورة في أيار/ مايو ١٩٥٨ في معظم المناطق ذات الأغلبية المسلمة فخرجت المسيرات الغاضبة مستنكرة التوجه نحو المعسكر الغربي، واشتبك المتظاهرون في طرابلس مع الجيش اللبناني بينما ظهرت المتاريس وخطوط التماس في بيروت الغربية، واستمرت الاشتباكات بين المعارضة والجيش اللبناني مدة شهرين حاول خلالها أنصار الزعيم الدرزي المعارض كمال جنبلاط التقدم على محاور بيروت والسيطرة على مطار بيروت وطريق (بيروت- دمشق) فتصدى لهم الجيش اللبناني، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية وبفعل عوامل إقليمية متعددة كان أبرزها سقوط نظام الملكية في العراق سارعت بالتشارك مع بريطانيا للتدخل العسكري في المنطقة لحماية الأنظمة الموالية لها، فتدخل الأمريكان في لبنان لاحتواء الثورة ومنع المعارضة القومية اليسارية من السيطرة على مقاليد الحكم في البلاد، ففي الخامس عشر من تموز/ يوليو وفيما المظليون البريطانيون يهبطون في مطار عمان بالأردن، وصلت طلائع وحدات المارينز الأمريكية إلى شواطئ بيروت وحاصرت الدبابات الأمريكية بيروت ووجهت المدافع نحو بيروت الغربية، تبعها لاحقًا ١٥ ألفَ جندي أمريكي مدعومين بأربعين ألف جندي محمولين على ٧٠ بارجة حربية تابعة للأسطول السادس الأمريكي في أول عملية من نوعها منذ الحرب العالمية الثانية عُرفت باسم (عملية الوطواط الأزرق). وعلى إثر ذلك فرضت واشنطن تسوية سياسية في لبنان، وانتخب قائد الجيش فؤاد شهاب رئيسًا للجمهورية في ٣١ تموز/ يوليو ١٩٥٨. وفي نهاية تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٨ غادر آخر جندي أمريكي الأراضي اللبنانية.

شكل لبنان ساحة صراع بين المعسكرين الشرقي والغربي يغذيه الانقسام الطائفي وانجذاب كل طائفة للقوى التي يراها تحمي وجوده وتحفظ حقوقه. لكن، ومع الأسبقية السياسية المسيحية، وسيطرة موقع رئيس الجمهورية على الجيش وقوى الأمن كانت الساحة اللبنانية تشهد احتكارًا للعنف والسلاح من قبل المسيحيين يقابله تسلح خجول للمسلمين الذين عاشوا حالة من التهميش، ولم يكسر هذا الوضع إلا دخول الفدائيين الفلسطينيين إلى لبنان لاحقًا.

٤- دخول الفدائيين الفلسطينيين إلى لبنان

عقب حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ والهزيمة التي منيت بها القوى العربية، انسحب الفدائيون الفلسطينيون إلى لبنان وتمركزوا سريعًا في الجنوب حيث أنشأوا قواعدهم، وقد رحب بهم الشارع اللبناني المسلم بحفاوة وانضم إليهم شبان لبنانيون، لتبدأ فيما بعد سلسلة عمليات فدائية شنها الفدائيون انطلاقًا من جنوب لبنان لاستهداف المواقع الإسرائيلية، الأمر الذي قوبل بسياسة رد إسرائيلية تحولت فيما بعد لضربات استباقية جعلت من جنوب لبنان والمخيمات الفلسطينية ساحة حرب مشتعلة.

ارتفعت وتيرة التعبئة الطائفية في لبنان، واتسع الانقسام الطائفي في الشارع اللبناني بين متعاطف مؤيد للمقاومة الفلسطينية (وهو الشارع المسلم بالأعم الأغلب) ومرتاب متخوف من توسع النفوذ الفلسطيني المسلح على حساب الجيش اللبناني وأجهزة الدولة ومؤسساتها (وهو الشارع المسيحي بالأعم الأغلب)، ومع تسارع الأحداث فقد الشارع المسيحي الثقة شيئًا فشيئًا بقدرة الجيش على الحد من توسع النفوذ الفلسطيني الأمر الذي دفع المسيحيين لإنشاء ميليشياتهم الخاصة[9].

تصاعدت وتيرة المناوشات بين المقاومة الفلسطينية -وعلى رأسها منظمة التحرير- والجيش اللبناني فبلغت ذروتها في عام 1969، وعلى وقع الاشتباكات بين الطرفين وبرعاية الرئيس المصري جمال عبد الناصر اجتمع في القاهرة كل من رئيس منظمة التحرير ياسر عرفات وقائد الجيش اللبناني إميل البستاني ليتم التوقيع على اتفاق عُرف باسم (اتفاق القاهرة) نص على حق الفلسطينيين في ممارسة العمل الفدائي. رأى المسيحيون في هذا الاتفاق ترسيخًا لما اعتبروه دويلة فلسطينية داخل لبنان وخرقًا للسيادة اللبنانية، لا بل خلصوا إلى أنه فرضته منظمة التحرير على الدولة اللبنانية[10].

---

[9] - جوني عبده مدير استخبارات الجيش اللبناني الأسبق، برنامج شاهد على العصر، قناة الجزيرة، 2017، الحلقة الرابعة.

[10] - أمين الجميل الرئيس اللبناني الأسبق، برنامج شاهد على العصر، قناة الجزيرة، 2009، الحلقة الأولى.

أخذ الصراع منذ البداية طابعًا طائفيًّا جليًّا، فالمسلمون بنظر المسيحيين هم ضد الدولة ومؤسساتها ويدعمون المقاومة الفلسطينية الأمر الذي يراه المسيحيون انقلابًا على النظام السياسي في لبنان، ولذا رأى المسيحيون في الصراع مع المقاومة الفلسطينية ومن يدعمها من المسلمين صراعًا مصيريًّا، فعلاقتهم مع الدولة اللبنانية كما يصفها جوزيف أبو خليل: "علاقة مصير، فهي في الأساس دولتهم التي أسسوها. وهي التي تحمي وجودهم السياسي وحرياتهم. فإن سقطت سقطت معها كل حماية"[11].

5- الحرب الأهلية: أطراف الصراع واللاعبون الاقليميون

هيأت الأجواء المشحونة الساحة اللبنانية لدخول الحرب من أوسع أبوابها منذ عام 1969 بل إن البعض يرى أن الحرب بدأت فعليًّا منذ ذلك الحين، وأن اتفاق القاهرة كان محاولة أخيرة لإيقاف الاقتتال، لكنه في حقيقة الأمر كان أشبه بالهدنة المؤقتة حيث استغلها الجميع للتسلح وإعداد العدة، غير أن حادث عين الرمانة في ١٣ نيسان/ إبريل ١٩٧٥ كان منعطفًا ومفصلًا بين المناوشات المتقطعة والحرب المفتوحة، حيث قتل ٢٦ فلسطينيًّا أثناء مرور حافلة تقلهم من منطقة عين الرمانة ذات الأكثرية المسيحية الموالية لحزب الكتائب، وعلى إثر ذلك اندلعت الاشتباكات في بيروت معلنة بدء الحرب المفتوحة، والتي أخذت منذ البداية طابعًا طائفيًّا: المسيحيون ضد المسلمين. ويرجع البعض حادثة عين الرمانة إلى كونها ردة فعل على ما سبقها من استفزازات فلسطينية استهدفت عناصر من كوادر حزب الكتائب الماروني كان آخرها اغتيال أحد مرافقي بيار الجميل برصاص مسلح فلسطيني مر من مناطق المسيحيين بسيارته[12].

أُعتبرت الحركة الوطنية بقيادة الزعيم الدرزي كمال جنبلاط الحليف اللبناني لفصائل المقاومة الفلسطينية، بينما رآها المسيحيون المظلة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية وأداتهم لفرض أجندتها على المشهد السياسي في لبنان[13]. وقد يستغرب القارئ من كون جنبلاط الدرزي زعيمًا للحركة الوطنية التي كانت تشتمل على القوى السياسية السنية، غير أن تصدر جنبلاط للمشهد نابع من كونه اشتراكيًّا حليفًا لمصر عبد الناصر والقومية العربية، كما أن لأسلافه قدم السبق في الصراع مع المسيحيين الموارنة في جبل لبنان.

---

[11] - جوزيف أبو خليل، قصة الموارنة في الحرب، (بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 1990)، ص٢٧.

[12]- المرجع السابق، ص 20.

[13] - أمين الجميل، شاهد على العصر، الجزيرة، الحلقة الثانية

على الناحية الأخرى اشتمل المشهد المسيحي على الجبهة اللبنانية التي جمعت تحت مظلتها أبرز القوى المارونية وميليشياتها: حزب الكتائب بزعامة بيير الجميل، حركة الوطنيين الأحرار بزعامة الرئيس كميل شمعون، وميليشيا المردة بزعامة الرئيس سليمان فرنجية وابنه النائب طوني فرنجية. وتقاسمت هذه القوى المسيحية الرئيسية في الساحة اللبنانية النفوذ تقاسمًا مناطقيًّا، واجتمعت على قضية الوجود الماروني في لبنان وأفضلية الموارنة وحقوقهم في مواجهة التوسع الفلسطيني المسلح الذي يحدث تغييرًا ديمغرافيًّا لصالح المسلمين في لبنان.

رجحت المعارك كفة الحركة الوطنية ومعها منظمة التحرير الفلسطينية نظرًا لتفوق منظمة التحرير العسكري على حساب الجبهة اللبنانية، وضاق الخناق على الجبهة اللبنانية لتصل المعارك إلى مشارف معقل الكتائب في الأشرفية ببيروت، الأمر الذي دفع حزب الكتائب لإرسال موفده جوزيف أبو خليل في آذار- مارس ١٩٧٦ إلى فلسطين المحتلة عبر البحر ليلتقي بمسؤولين صهاينة ويطلب منهم الدعم العسكري في إطار الدفاع عن البقاء لا العمالة لإسرائيل كما يعبر عن ذلك أبو خليل نفسه[14]. وجوزيف أبو خليل شخصية مسيحية بارزة، فهو صديق آل الجميل، وتربى في كنف حزب الكتائب وعلى عين المؤسس بيار الجميل حتى صار صديق العائلة، وكان مقربًا من بشير الجميل[15]، ويرى فيه مستقبل المسيحيين في لبنان ومخلصهم.

وافق الصهاينة على دعم المسيحيين في لبنان، بل وجدوا في ذلك فرصة لإقامة ثقل مضاد للنظام السوري ومنظمة التحرير للحد من الأخطار المتوقعة من الجهة الشمالية مع لبنان واستصحاب تجربة السلام التي كانت قيد الإعداد مع مصر السادات. يرى صناع القرار الصهاينة في الأقليات العرقية والدينية في الشرق الأوسط مشاريع حلفاء محتملين في مواجهة الأكثرية المسلمة السنية في العالم العربي، ولذلك دعم الصهاينة إيران الشاه والأحزاب الانفصالية الكردية وكذلك المسيحيين في لبنان، حيث أرادوا بذلك من هذه الأقليات أن تربط مصيرها ومستقبلها بمصير ومستقبل دولة الصهاينة في المنطقة. وتطورت هذه الاستراتيجية لاحقًا لدعم قيام حكومة يحكمها المسيحيون في لبنان ترضى بعقد معاهدة سلام مع الكيان

[14] - جوزيف أبو خليل ص ٤٤-٤٦.

[15]- نجل بيار الجميل ومؤسس القوات اللبنانية وأحد أقوى الزعماء المسيحيين زمن الحرب الأهلية، انتخب رئيسًا للجمهورية عام ١٩٨٢، واغتيل في نفس العام.

الصهيوني. وبالفعل دعم الصهاينة المسيحيين بالذخائر والسلاح والمواد الغذائية، وكان هذا الدعم بدايةً مدفوع الثمن كما يؤكد شيمون شيفر[16] وأكده المدير الأسبق لمخابرات الجيش اللبناني جوني عبده[17].

وعلى الجهة الأخرى، حرصت سوريا على ضبط الساحة اللبنانية ومنع خروج القوى المتحاربة عن سيطرتها، فدعمت تارة منظمة التحرير وميليشيات الحركة الوطنية كما فعلت في معركة الدامور التي شنتها الحركة الوطنية ومنظمة التحرير ردًّا على مجزرة السبت الأسود في بيروت التي ارتكبتها الكتائب اللبنانية، إلا أن دمشق منعت الحركة الوطنية من الحسم العسكري[18] ومع رجحان كفة الحركة الوطنية عسكريًّا بدأت سوريا بدعم الجبهة اللبنانية بالسلاح وبالتحديد ميليشيا الكتائب التي حوت مستودعاتها سلاحًا من سوريا والأردن وإسرائيل في آن معًا وجميعهم كانوا على علم بذلك[19].

تدخلت سوريا عسكريًّا لصالح القوى المسيحية بداية، ثم حاربتها بشدة مثلما حصل في معارك زحلة وبيروت. حاول النظام السوري من خلال ذلك الإمساك بمفاتيح الصراع اللبناني كورقة ضغط وتفاوض في مقابل انسحاب مصر من محور المواجهة مع الصهاينة وتوقيع كامب ديفيد، وأراد الرئيس السوري حافظ الأسد تكريس زعامته العربية بعد عبد الناصر الأمر الذي اصطدم بياسر عرفات في لبنان وصدام حسين في العراق. هذه الصورة العامة التي توضح الموقف السوري الذي استخدم القوة مع الخارجين عن بيت الطاعة في دمشق وقبل العائدين إليه وفق شروط وقيود، فلا مانع لديه من التفاهم مع الكتائب إن انصاعوا، أو التعامل مع إيلي حبيقة- أحد أبرز قادة القوات اللبنانية الأمنيين والعسكريين والذي تدرب في معسكرات وقواعد الكيان الصهيوني وكان مسؤولًا عن مجازر صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢[20]- ما دام سيعمل وفق ما يخدم مصالح سوريا في لبنان. لقد أراد حافظ الأسد الإمساك بمفاتيح الساحة اللبنانية فإما أن يكون الحل فيها سوريًّا -أيًّا كان هذا الحل- أو لا يكون.

كثر اللاعبون في الساحة اللبنانية وتداخلت المصالح وتشابكت، فخرج القرار من كونه لبنانيًّا ليصبح لبنان ساحة حرب وتصفية حسابات بين القوى الإقليمية والدولية، واجتاح الصهاينة لبنان عام ١٩٨٢ فوصلوا

---

[16] - شيمون شيفر، كرة الثلج، ص-٤١-٤٢.

[17] - جوني عبده، الحلقة الرابعة.

[18] وثائقي حرب لبنان، قناة الجزيرة، الجزء الرابع، 10 يناير 2005.

[19] - أمين الجميل، الجزء الرابع.

[20] - كريم بقردوني، لعنة وطن (عبر الشرق للمنشورات، بيروت ١٩٩١)، ص٢٩-٩٣.

إلى بيروت وخرج ياسر عرفات من بيروت، في المقابل نجح بشير الجميل بدعمٍ إسرائيلي في الوصول إلى رئاسة الجمهورية. وانتظر الصهاينة من بشير أن يوقع اتفاق سلام على غرار السادات، لكنها اصطدمت بالتحولات التي طرأت على شخصية بشير الذي بات رئيسًا للبنان يطمح في الحصول على قبول من القوى والزعامات اللبنانية المسلمة، فهو يعلم أن اتفاق السلام هذا سيعني القطيعة الدائمة مع المسلمين دون عودة إلى الوراء، الأمر الذي يتناقض مع مشروع الرئاسة التي فرضت عليه تفكيرًا جديدًا. فبشير زعيم الميليشيا لم يكن سابقا يعول على أي قبول إسلامي، فهو زعيم مسيحي يريد بناء دولة مسيحية، غير أن هذه الرؤية وطريقة التفكير بدأت تتغير مع بشير رئيس الجمهورية، وعلى أي حال لم يسعف الوقت بشير لإثبات أي تحول فقد اغتيل بعد ٢١ يوما فقط من انتخابه رئيسًا.

يُعد اغتيال بشير الجميل نقطة تحول فارقة بالنسبة للساحة المسيحية في لبنان، فهو الذي أسس لها كيانها العسكري ووحد ميليشياتها تحت مظلة القوات اللبنانية، وجعل من هذا الكيان دويلة في مناطق نفوذه له مؤسساته العسكرية والأمنية والاقتصادية، وتعلقت به الجماهير المسيحية وأعجب به الصهاينة، وجمع حوله كادرًا مميزًا على الصعد السياسية والعسكرية والأمنية والإعلامية وغيرها، فكان منهم جوزيف أبو خليل، سمير جعجع، إيلي حبيقة، كريم بقرادوني وغيرهم، إلا أن مقتله شكل بداية مرحلة التفكك والانقسامات والانقلابات داخل الجهة اللبنانية بل وداخل القوات اللبنانية نفسها، الأمر الذي استغله اللاعبون الإقليميون حيث بدأت القوى الخارجية تتجاذب أركان القوات اللبنانية التي بدأت تفقد قرارها المتماسك ودخلت في أتون صراعات داخلية دموية أفقدتها زخمها الشعبي في الشارع المسيحي واستنزفت طاقاتها العسكرية وخسرت معاركها في جبل لبنان وحول مدينة صيدا.

استنزفت الحرب الأهلية اللبنانية كافة الأطراف، وطالت مدتها وتشعبت ملفاتها، واحتل الصهاينة أجزاء واسعة من لبنان حتى الجبل ومشارف العاصمة بيروت، وأسسوا لكيان انفصالي في الجنوب يشرف عليه ضباط لبنانيون مسيحيون على رأسهم الرائد سعد حداد وخلفه أنطوان لحد. وبسط السوريون سيطرتهم على أجزاء واسعة في البقاع والشمال، وبات الجميع يبحثون عن مخرج من هذه الحرب يحفظ ما تبقى لهم من وجود.

٦- اتفاق الطائف

بلغت الحرب الأهلية في لبنان مرحلة من الفوضى الشاملة، ودخل لبنان مرحلة الانهيار الاقتصادي، وباتت الحرب بالنسبة لكافة الأطراف حربًا عبثية دون رؤية واضحة المعالم، وباتت القوى الإقليمية والدولية هي

اللاعب الرئيسي في المشهد اللبناني. وراح الجميع يبحثون عن مخرج من هذا الواقع يحفظ لكل طرف الحد الأدنى من المصالح والمكتسبات الموجودة، ولاح في الأفق الحل من جهة الخليج وتحديدًا من مدينة الطائف في السعودية حيث كان رفيق الحريري رجل الأعمال اللبناني وصديق الملك فهد يلعب دورًا بارزًا أشبه بضابط ارتباط لجمع الأطراف المتحاربة على طاولة الحوار في الطائف برعايةٍ سعودية ورضىً سوريٍّ وإشرافٍ أمريكي.

وافق الجميع على (وثيقة الاتفاق الوطني) أو ما اشتهر لاحقًا باتفاق الطائف عدا قائد الجيش العماد ميشال عون[21] الذي أخذ يهدد النواب ويتوعدهم ويهاجم الدور السوري والأمريكي، الأمر الذي دفع به لاحقًا لخوض مواجهة عسكرية خاسرة مع الجيش السوري انتهت بهزيمته ولجوئه إلى باريس. والحقيقة أن بنود الاتفاق لم تكن محل إجماع بين المجتمعين إلا أن الجميع كانوا ملزمين بالتوقيع إنجاحًا للمبادرة فيما أُعتبر لاحقًا فرضًا أمريكيًّا للحل في لبنان مع اقتراب أزمة الخليج مع العراق.

عزز اتفاق الطائف من موقع رئيس الحكومة (السني) على حساب موقع رئاسة الجمهورية (المسيحي)، حيث قلص صلاحيات رئيس الجمهورية وأناط صلاحياته الإجرائية بمجلس الوزراء الذي يرأسه دون أن يكون له الحق بالتصويت، كما كرس الدور السوري في لبنان والذي بات أشبه بوصاية وانتداب، وأحس المسيحيون بالغبن نتيجة السطوة السورية وعدم تطبيق كافة بنود اتفاق الطائف خصوصًا تلك المتعلقة بالسيادة، وبسط سلطة الدولة بقوتها الذاتية، وانسحاب القوات السورية من لبنان - باستثناء البقاع المواجه لإسرائيل- وحل الميليشيات وتسليم سلاحها للدولة اللبنانية وغير ذلك من المقررات التي لم تنفذ.

يمكن القول إن اتفاق الطائف أسس لمرحلة جديدة في الساحة اللبنانية عنوانها السطوة الأمنية السورية وتحكمها بالمشهد السياسي اللبناني، الأمر الذي سينتج عنه لاحقًا العديد من الأحداث الأمنية الدامية، فضلًا عن تضخم دور حزب الله وحلفاء سوريا على حساب الأحزاب المسيحية. ويصح القول إن اتفاق الطائف ما هو إلا تسوية مؤقتة ما لبثت أن فشلت لاحقًا تبعًا للتناقضات التقليدية القديمة التي لم يلغها الطائف ولم تحسمها الحرب، إضافة إلى تعاظم الشعور بالخوف لدى المسيحيين الذين رأوا أن الطائف يستهدفهم وحدهم.

[21] - قائد الجيش اللبناني ورئيس الحكومة العسكرية التي خلفت عهد الرئيس أمين الجميل، ورئيس لبنان حاليا.

ثانيًا: ما بعد اتفاق الطائف

١- الساحة المسيحية

انكشف اتفاق الطائف عن سيطرة النفوذ السوري وحلفائه على المشهد اللبناني وانحسار لليمين المسيحي، فانتشر الجيش للمرة الأولى في شوارع بيروت الغربية حيث معاقل القوات اللبنانية، وسلمت القوات التي كانت بإمرة سمير جعجع سلاحها الثقيل للجيش اللبناني وباتت حزبًا سياسيًّا يمثل المسيحيين الموارنة. غير أن الأمور اتجهت نحو التصعيد بين القوات والسلطة حيث قوبلت معارضة القوات للحكم الجديد بحملة مداهمات واعتقالات طالت عناصر وكوادر من القوات، وعقب حادثة تفجير كنيسة سيدة النجاة كشفت التحقيقات عن ضلوع عناصر من القوات بالحادثة وعلى إثر ذلك في عام ١٩٩٤ أُعتقل سمير جعجع الذي برئ لاحقًا في هذه القضية، غير أنه أدين بقضايا أخرى مثل اغتيال داني شمعون - نجل الرئيس كميل شمعون وزعيم ميليشيا النمور الأحرار اليمينية - وعائلته إضافة إلى اغتيال الرئيس رشيد كرامي أحد أبرز رؤساء الحكومة السنة، ليتم الحكم على جعجع بالسجن المؤبد، ويُحل حزب القوات بقرار من الرئيس إلياس الهراوي.

خسرت الساحة المسيحية باعتقال جعجع أحد أبرز رموزها وقادتها بعد الطائف، الأمر الذي ضاعف الشعور بالظلم والإحباط لدى المسيحيين. شهدت تلك الفترة دخول سليمان فرنجية - نجل طوني فرنجية - العمل السياسي كنائب في المجلس النيابي مستمدًّا زعامته من أبيه وجده، كما عاد إيلي حبيقة إلى المشهد السياسي محاولًا جمع شتات الموارنة ومستغلًا غياب منافسه وزميله السابق سمير جعجع، لكنه فشل في ذلك، وانتهى به المطاف في حادثة اغتيال أودت بحياته عام ٢٠٠١ لتقصي رمزًا آخر من رموز الموارنة الذين صنعتهم الحرب الأهلية. أما حزب الكتائب فقد عاش فترة من الركود والضعف، فيما أمضى كل من الرئيس السابق أمين الجميل والعماد ميشال عون تلك الفترة بالمنفى في باريس.

كانت فترة ما بعد الطائف بالنسبة للمسيحيين الموارنة أشبه بفترة من التيه والضياع والمراجعات والانقسامات، حيث بات زعماؤهم بين معتقل ومنفي وقتيل، ويرجع البعض هذا المآل السيء للتضخم السريع الذي شهدته الساحة المسيحية في الثمانينات متمثلة بالقوات اللبنانية بفعل الدعم الإسرائيلي والذي اعتبر خطأ استراتيجيًّا دفع الموارنة ثمنه خمسة عشر سنة من الضعف والانكسار.

٢- الساحة السنية

برزت في الساحة السنية وجوه جديدة غير تقليدية خاصة مع صعود نجم رفيق الحريري رجل الأعمال السعودي- اللبناني، صديق الملك السعودي فهد بن عبد العزيز والرئيس الفرنسي جاك شيراك. ساهم الحريري في إعمار بيروت وتأسيس العديد من المشاريع التنموية والتربوية والصحية التي انتشلت السنة من واقع البؤس والتهميش. وقد جمع الحريري بين السياسة والاقتصاد، وساهمت جهوده التنموية في رفع أسهمه الشعبية في بيروت تحديدًا. وقد شغل الحريري منصب رئيس الحكومة لأول مرة بين عامي ١٩٩٢-١٩٩٨ قبل أن يُنتخب قائد الجيش العماد إميل لحود المدعوم من سوريا رئيسًا للجمهورية عام ١٩٩٨، فاستبعد لحود رفيق الحريري عن رئاسة الحكومة الأمر الذي أثار غضب السنة في لبنان عموما وبيروت خصوصًا، ليخوض الحريري المعركة النيابية عام ٢٠٠٠ حين فازت لائحته في بيروت مكرسًا نفسه زعيمًا للسنة آنذاك. عقب ذلك عاد الحريري إلى رئاسة الحكومة عام ٢٠٠٠ حتى عام ٢٠٠٤.

على الرغم من صعود نجم الحريري في الشارع السني ونشاطه السياسي والتنموي الكبير، إلا أن السنة في شمال لبنان كانوا بعيدين عن الحريرية السياسية نوعًا ما، إذ أن الحرب الأهلية كانت فرصة للتيار الإسلامي ليفرض نفسه في طرابلس والشمال ممثلًا بكل من السلفيين والجماعة الإسلامية وحركة التوحيد الإسلامي التي كانت الأقوى عسكريًا وشعبيا. في مطلع عام ١٩٨٢ كان الإسلاميون قد بسطوا سيطرتهم على طرابلس عاصمة الشمال اللبناني، وبايعوا فيها الشيخ سعيد شعبان أميرًا لحركة التوحيد الإسلامي[22]، في ظل توافق مع المكونات الإسلامية الأخرى. وعلى الرغم من سقوط إمارة التوحيد عام ١٩٨٥ إثر معركة عنيفة مع الجيش السوري والميليشيات المساندة له والحصار الخانق الذي فرضوه على المدينة، إلا أن النشاط الشعبي والاجتماعي للإسلاميين في طرابلس والشمال كان قد نقل أهلها نقلة نوعية، فتأثر عموم الشباب الذين عاصروا تلك التجربة بالمشروع الإسلامي والشعارات التي رفعها الإسلاميون آنذاك. ومع انتهاء الحرب الأهلية استمر نجم الإسلاميين بالصعود شعبيًا في طرابلس، خاصة في ظل الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان حيث كانت تجمع أمير حركة التوحيد الشيخ سعيد شعبان بقيادة حزب الله - القوة الشيعية الأصولية المتنامية في الجنوب- علاقات طيبة تحت مظلة الوحدة الإسلامية في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي. استطاع التيار الإسلامي فرض نفسه على المشهد السياسي اللبناني في التسعينات خاصة عام ١٩٩٨ حين اكتسحت اللائحة الإسلامية الانتخابات البلدية في طرابلس بفعل القاعدة الشعبية الكبيرة التي حظي بها

[22] - الشيخ سعيد شعبان، موقع حركة التوحيد الإسلامي، 21 نوفمبر 2017.

الإسلاميون آنذاك. هذه الأجواء التي عاشتها طرابلس جعلتها حاضنة للتيار الإسلامي بمختلف توجهاته، كما جعل منها ساحة صراع مع الأجهزة الأمنية اللبنانية- السورية بفعل التضييق الممنهج والضغط على الإسلاميين، ونتج عن ذلك صدامات دموية راح ضحيتها العشرات من جميع الأطراف إضافة إلى المئات من المعتقلين الإسلاميين الذين طالتهم حملات الاعتقال العشوائية.

٣- الساحة الشيعية

لعل الشيعة كانوا أكبر المستفيدين من الحرب الأهلية التي أنتجت بفعل الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان كيانًا شيعيًّا أصوليًّا اسمه "حزب الله" يتبنى المقاومة المسلحة خيارًا استراتيجيًّا، ويدين بالولاء الديني لولاية الفقيه، ولا يخفي هدفه بتحويل لبنان إلى دولة إسلامية[23]. كما أن الحزب مع بداية تأسيسه كان يجاهر برفضه للنظام السياسي اللبناني وأن يكون رئيس البلاد مارونيًّا[24]، ويدعو الآخرين للالتحاق بمشروعه لإقامة حكومة إسلامية[25]. لم ينخرط حزب الله في الحرب الأهلية لأنه كان في مرحلة التأسيس وقت اشتعال الحرب، وصب اهتمامه على الاحتلال الإسرائيلي. وعملائه، لكنه وفي إطار الصراع على زعامة الصف الشيعي وتبعًا للخلاف الأيديولوجي دخل في صراع دموي مع حركة أمل دام سنوات وانتهى بتراجع أمل وصعود نجم الحزب أكثر. وقد عمد الحزب إلى تعبئة الشيعة دينيًّا وفكريًّا وسياسيًّا في المساجد والحسينيات، إضافة إلى إطلاقه لمشاريع اجتماعية تنموية في مناطق نفوذه، إلى جانب عملياته العسكرية الناجحة فذاع صيت مقاتلي الحزب وكثر الحديث عن بسالتهم في القتال والعمليات الفدائية، كل هذا أكسب الحزب حاضنة شعبية واسعة في الساحة الإسلامية (الشيعية والسنية على حد سواء نظرًا لعلاقة الحزب الوطيدة بالعديد من الجماعات السنية كالجماعة الإسلامية في صيدا وحركة التوحيد الإسلامي في الشمال).

مع انتهاء الحرب الأهلية، انقسم الشارع الشيعي بين نفوذ واسع لحزب الله وأقل منه لمنافسته حركة أمل، فوافقت أمل على اتفاق الطائف غير أن الحزب رفضه حيث اعتبره دون المطلوب مطالبًا بإلغاء الطائفية

---

23 - الأمين العام لحزب الله حسن نصر الله في مقابلة تلفزيونية مع جبران التويني- المؤسسة اللبنانية للإرسال 1995.

24 - حزب الله التاريخ الأيديولوجي والسياسي، يوسف الأغا، ترجمة نادين نصر الله، دراسات عراقية (بغداد- أربيل- بيروت ٢٠٠٨) ص 60.

25 - حزب الله: المنهج- التجربة- المستقبل، نعيم قاسم، دار المحجة البيضاء- الطبعة السابعة (بيروت ٢٠١٠) ص 51.

السياسية التي أقرها الطائف نظريًّا دون تطبيق[26]. وقد اكتفى الحزب بالاعتراض السياسي دون رد فعل على الأرض وواصل عملياته ضد الاحتلال الإسرائيلي.

صحيح أن اتفاق الطائف ألزم الميليشيات بتسليم سلاحها للدولة اللبنانية، غير أن تكريس حزب الله نفسه كحركة مقاومة لم تشترك بالاقتتال الطائفي أعفاه من هذا القرار، ومع مرور الزمن وتصاعد عمليات الحزب ضد الاحتلال في الجنوب تشكل لدى معظم أطياف اللبنانيين شعور بالتضامن مع الحزب ومقاومته، خاصة خلال عدوان نيسان/إبريل 1996 الذي شنته إسرائيل على لبنان، وهو الأمر الذي ترافق مع بداية انفتاح الحزب وتعديل بعض مواقفه التي أعلن عنها بداية تأسيسه، فصار خطاب الحزب أكثر انفتاحًا تجاه المسيحيين، وتحول الحزب من نظرية الرفض التام إلى ضرورة المشاركة لإظهار الوجه السياسي للحزب والدفاع عن المقاومة والتوجه إلى الرأي العام الداخلي والإقليمي والدولي لتحفيزه إن لم يكن على دعم المقاومة فعلى عدم معاداتها، كل ذلك بقدر ما تسمح به مساحة العمل البرلماني. وكانت أول مشاركة للحزب في الانتخابات النيابية عام 1992 حيث فاز حينها بالمقاعد الاثنى عشر الموجودة على لائحته الانتخابية، وظهر الحزب كقوة سياسية أساسية في لبنان متفوقًا على منافسه في الساحة الشيعية حركة أمل.

تصاعدت عمليات الحزب الناجحة ضد الاحتلال في الجنوب، وبلغت ذروتها مع نهاية القرن العشرين لتنتهي بانسحاب الاحتلال وميليشيا أنطوان لحد التابعة له من جنوب لبنان في ٢٥ أيار/مايو ٢٠٠٠ باستثناء مزارع شبعا المحتلة. وأثمر هذا الإنجاز العسكري للحزب زيادة في شعبيته داخليًّا وخارجيا وتطورًا ملحوظًا في دوره السياسي في الأعوام التي تلت تحرير الجنوب.

صحيح أن الحزب يسيطر الآن على قرار الساحة الشيعية في لبنان، لكن الشيعة ليسوا جميعهم مؤيدين للحزب أو متابعين له، فقسم لا يستهان به من الشيعة يؤيدون حركة أمل التي تختلف عن الحزب أيديولوجيًّا وفكريًّا وتميل لكونها حركة علمانية بينما يصنف الحزب أصوليًّا، كما أن جزءًا من الشيعة يعارضون أمل وحزب الله معًا، كأتباع المرجع شيعي محمد حسين فضل الله، والسيد هاني فحص عضو المجلس التشريعي التابع للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان، والسيد علي الأمين مفتي صور وجبل عامل، والشيخ محمد الحاج حسن رئيس التيار الشيعي الحر، والشيخ يوسف كنج، إضافة إلى أبرز

[26] - المرجع السابق، ص ١٦٣.

المعارضين الشيخ صبحي الطفيلي أحد مؤسسي الحزب والأمين العام الأول لحزب الله، والذي بدأت معارضته للحزب منذ عام ١٩٩٢ حين عارض دخول المجلس النيابي قبل أن يفصل من حزب الله عام ١٩٩٨[27].

4- الساحة الدرزية

كغيرهم ممن خاض غمار الحرب الأهلية الطائفية، خرج الدروز من الحرب مستنزَفين أنهكهم القتل والتشريد والخوف على المصير، فعلى الرغم من كونهم لاعبًا رئيسيا في المعادلة اللبنانية منذ عقود إلا أنهم أقلية تعيش هواجس كثيرة، تلك الهواجس تنبع من خصوصية الدروز كطائفة باطنية منغلقة اجتماعيًّا محصورة مناطقيًّا في جبل لبنان.

تمحورت الزعامة الدرزية حول آل أرسلان وآل جنبلاط لتاريخهما السياسي العريق كما تجمع العائلتين علاقة قرابة وطيدة، إلا أن الحرب الأهلية كانت قد حملت إلى الصدارة اسم كمال جنبلاط -زعيم اليسار اللبناني آنذاك ومؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي- ومن بعده نجله وليد جنبلاط، فبعد اغتيال كمال جنبلاط عام 1977 التف الدروز حول ابنه وليد الذي كان شابًّا وانتخبه التقدميون الاشتراكيون خلفًا لوالده، ليخوض وليد ومن خلفه الاشتراكيون والدروز معارك شرسة ضد اليمين المسيحي، غير أن المفارقة تكمن في تغاضي وليد عن تورط النظام السوري في اغتيال والده كمال، ليؤسس علاقة وطيدة مع أركان النظام السوري[28]، كل ذلك في إطار البراغماتية التي ينتهجها جنبلاط تبعًا لمصالح الطائفة الدرزية وموازين القوى في المنطقة.

لم يشارك جنبلاط في اتفاق الطائف لعدم كونه نائبًا في البرلمان اللبناني آنذاك، غير أنه وافق عليه وأيده ودعمه، فالدروز رفضوا الفدرالية التي كان اليمين المسيحي يطرحها لما لها من إضعاف وجودهم وكيانهم وتحجيم دورهم في المنطقة. وفي نفس السياق استمرت علاقة الدروز الجيدة مع سوريا بشطريهم جنبلاط وأرسلان، حيث دخل وليد جنبلاط إلى البرلمان كعضو عام 1991 وذلك بعد التوقيع على اتفاق الطائف، وذلك لملئ المقاعد الشاغرة بفعل الوفاة، حيث اختير عضوًا بديلًا عن والده كمال جنبلاط، وأُنتخب بعد ذلك عضوًا بانتخابات أعوام 1992 و1996 و2000 إلى ما بعدها. كان قبلها وأثناء الحرب الأهلية قد عين وزيرًا، وقد تولى خلال حياته عددًا من الوزارات. كما برز طلال أرسلان نجل الزعيم الدرزي

---

[27] - نعيم قاسم ص١٩١، ويوسف الآغا: ص٧.

[28] - محمد منصور، وليد جنبلاط: الثابت والمتحول، أورينت، 17 فبراير 2013.

مجيد أرسلان وقد عين سنة 1991 كنائب خلفًا لوالده المتوفي وأعيد انتخابه بسنوات 1992 و1996 و2000، كما يرأس أرسلان الحزب الديمقراطي اللبناني الذي أسسه عام 2001. أما وئام وهاب الذي يتصدر الشاشات اليوم بكلامه الحاد فلم يكن قد برز حينها إذ كان لا يزال عضوًا في الحزب التقدمي الاشتراكي ثم مستشارًا سياسيًّا لطلال أرسلان حتى نهاية التسعينات.

اتسم الصف الدرزي بعد الطائف بالتوافق مع مصالح النظام السوري في لبنان، فعلى الرغم من بعض الخلافات الفرعية إلا أن جنبلاط وأرسلان حافظا على علاقة وطيدة بأركان النظام السوري، غير أن وفاة الرئيس السوري حافظ الأسد شكلت بداية الفتور بين جنبلاط والرئيس الجديد بشار الأسد، هذا الفتور سيتحول في المرحلة المقبلة إلى عداء صريح.

ثالثًا: اغتيال رفيق الحريري وتداعياته على المشهد

في 14 شباط/ فبراير 2005، اغتيل رئيس الوزراء اللبناني الأسبق رفيق الحريري مع 21 شخصًا، عندما انفجرت شاحنة مفخخة أثناء مرور موكبه بالقرب من فندق سان جورج في العاصمة بيروت. وأعقب ذلك سلسلة من المظاهرات الحاشدة عُرفت حينها بثورة الأرز كان أضخمها مظاهرة مليونية في 14 آذار/ مارس 2005 قادتها قوى اليمين المسيحي مستفيدة من غضب الشارع بمشاركة القوى المستفيدة من الظرف الراهن كالاشتراكيين بزعامة جنبلاط والجماعة الإسلامية رغم تمثيلها الشعبي الضعيف وغيرهم. وترافق ذلك مع ضغوط دولية أجبرت سوريا على سحب قواتها من لبنان. وفي المقابل نظم حلفاء دمشق الشيعة في لبنان سلسلة من التجمعات الحاشدة دعمًا لسوريا. وتحت تأثير الضغط الشعبي استقالت حكومة الرئيس عمر كرامي الموالية لسوريا ليتم تشكيل حكومة برئاسة نجيب ميقاتي الذي حظي بتوافق أمريكي فرنسي سعودي.

شهدت هذه الفترة اصطفافًا سياسيا جديدا جمع وليد جنبلاط -الذي انقلب على السوريين- بخصومه السابقين من اليمين المسيحي -الكتائب والقوات- في تحول زئبقي فاجأ الجميع، إضافة إلى عودة المعارض للوجود السوري بلبنان العماد ميشال عون في 7 أيار/ مايو 2005 بعد نفي استمر 15عامًا ليشارك قوى ثورة الأرز معارضًا لسوريا وحلفائها في لبنان وفي طليعتهم حزب الله. وفي 26 تموز/ يوليو 2005 تم الإفراج عن زعيم القوات اللبنانية سمير جعجع بعد 11 عامًا من السجن في إطار عفو خاص شمل الموقوفين

الإسلاميين بقضية أحداث الضنية[29]، كما ظهر نجل الحريري سعد خلفًا لأبيه في العمل السياسي ومعارضًا للنظام السوري وحلفائه في لبنان.

شارك حزب الله للمرة الأولى منذ تأسيسه في الوزارة بوزير محسب عليه في حكومة نجيب الميقاتي سعيًا منه للمشاركة في صياغة سياسات الحكومة الجديدة خاصة بعد صدور القرار الدولي 1559[30] والذي يرى الحزب فيه استهدافًا لسلاح المقاومة ودورها ونية أمريكية للإمساك بزمام الأمور في لبنان، ما دفعه لإثبات حضوره في الحكومة وفق ما يخدم مصلحة الحزب وسياسته[31].

أظهرت الانتخابات النيابية في 29 أيار/ مايو 2005 تقدمًا سياسيًّا وشعبيا لخصوم النظام السوري وحلفائه في لبنان حيث حصلوا على أكثرية نيابية، ليتم في 30 حزيران/ يونيو 2005 تكليف حليف الحريري وزير المال السابق فؤاد السنيورة بتشكيل الحكومة بعد أن رشحته الأغلبية النيابية الجديدة.

في ظل تقدم المحور المناوئ لحلف الممانعة ومشروع القرار 1559 سعى حزب الله للبحث عن حليف مسيحي يخرجه من الدائرة الشيعية التي تحيط به ويكسبه قدرة على المناورة في الصف المسيحي، وكانت الفرصة سانحة لتشتيت قوى ثورة الأرز أو ما عرف بقوى 14 آذار عبر استغلال الخلاف بين العماد ميشال عون- أحد أبرز الوجوه المسيحية في ثورة الأرز والرافضين للوجود السوري في لبنان تاريخيا- وأقرانه الذين حاولوا تهميشه وإقصائه خاصة بعد تشكيل حكومة فؤاد السنيورة التي لم تضم في تشكيلتها أيًّا من المحسوبين على عون وتياره، ما دفع عون للاستياء والبحث عن حليف جديد يحقق من خلاله مكاسب سياسية. وعلى إثر ذلك أُعلن في 6 شباط/ فبراير 2006 عن ورقة تفاهم بين حزب الله والتيار الوطني الحر وذلك بحضور كل من حسن نصر الله وميشال عون[32]، وهو التحالف الذي سيؤسس لأزمات متعاقبة ولمزيد من التعقيد في المشهد اللبناني.

رابعًا: ملف سلاح حزب الله وحرب تموز 2006

يعد ملف سلاح الحزب أحد أكثر الملفات حساسية وتعقيدًا في الساحة اللبنانية، فالحزب الذي بنى ترسانته العسكرية على مراحل، قد أثبت عسكريًّا جدوى هذا السلاح وفعاليته منذ عام 1982، ومع تحرير الجنوب

---

[29] - فيداء عيتاني، التاريخ المكتوم للجهاديين كما يرونه، جريدة الأخبار، 22 سبتمبر 2007.

[30] - نص قرار مجلس الأمن 1559، الجزيرة، 24 يوليو 2006.

[31] - نعيم قاسم ص 246.

[32] - نص ورقة التفاهم بين حزب الله والتيار الوطني الحر المعلنة، موقع قناة المنار، 6 فبراير 2017.

اللبناني حاول المجتمع الدولي تعرية الحزب من أي ذريعة شرعية للمحافظة على سلاحه الذي يشكل مخاوف كبيرة لدى قوى 14 آذار وخصوصًا اليمين المسيحي الذي كان ولا يزال يعاني من مخاوفه تجاه تعاظم أي قوة في لبنان قد تهدد وجودهم ومصيرهم، فكما سبب السلاح الفلسطيني حربًا أهلية في لبنان دامت خمسة عشر عامًا يخشى المسيحيون أن يتسبب سلاح الحزب وتضخم قوته وتوسع نفوذه بأزمة مشابهة. وقد أشار البطريرك الماروني بطرس الراعي إلى هذه المخاوف في مذكرة بعنوان "لبنان والحياد" الناشط[33] مؤكدًا على كون لبنان دولة "مساندة" للقضية الفلسطينية لا دولة "مواجهة" وهو الموقف المتجدد الذي تعلنه المرجعيات المسيحية في لبنان منذ عام 1945. كما كان لانقلاب وليد جنبلاط على حزب الله دلالة على تصاعد الحملة الداخلية والخارجية على سلاح الحزب خاصة مع انتقاد جنبلاط لموقف الحزب من سوريا ووجود السلاح بيده مع عدم الحاجة إليه.

كان للوجود السوري في لبنان دوره البارز في حماية نفوذ حزب الله وسلاحه باسم مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، لكن ومع القرار الدولي 1559 والانسحاب السوري من لبنان عام 2005 وتراجع نفوذ المحور السوري أمام تقدم نفوذ قوى 14 آذار سياسيًّا وشعبيًّا وفوزهم بأكثرية نيابية ووزارية، ومطالبة أممية باستكمال تنفيذ القرار 1559، بدأ الحزب يتحسس الخطر الذي يتهدد سلاحه ونفوذه ما دفعه للتحالف مع عون وإطلاق المزيد من التصريحات المتشنجة والمتصلبة وصولًا إلى خوضه حرب تموز/ يوليو 2006 مع إسرائيل والتي كان سببها عملية "الوعد الصادق[34]" التي نفذها الحزب عند الحدود مع فلسطين المحتلة في 12 تموز/ يوليو 2006 حيث أسفرت عن مقتل وجرح عدة جنود صهاينة وأسر جنديين. وكان الهدف من هذه العملية أسر جنود صهاينة لمبادلتهم مع أسرى لبنانيين في سجون الاحتلال، لكن الرد الإسرائيلي كان عنيفًا إذ قررت إسرائيل شن عدوانها على جنوب لبنان المعروف بحرب تموز والذي استمر لـ33 يومًا. ومن جهته قال حزب الله إن الحرب مع إسرائيل كانت قادمة لا محالة بقرار وضغط أمريكي في إطار القرار 1559، الأمر الذي كان الحزب على علم به واستعداد له، ومبررا عملية أسر الجنديين بأنها جاءت استباقًا للحرب القادمة التي كانت إسرائيل تحتاج لبضعة أشهر إضافية لتستكمل استعداداتها لها[35].

ميدانيًا لم تحرز إسرائيل أي تقدم عسكري بل تكبدت خسائر كبيرة تبعًا لحرب العصابات المرنة التي اعتمدها الحزب وقدرته على إطلاق رشقات صاروخية غزيرة على المستوطنات دون أن يستطيع سلاح الجو

---

[33] - مذكرة لبنان والحياد الناشط، بطريركية أنطاكية وسائر المشرق، 5 يوليو 2020.

[34] - الوعد الصادق: عملية نوعية بكل المقاييس، أرشيف موقع قناة المنار، 12 يوليو 2011.

[35] - نعيم قاسم، ص 255.

الإسرائيلي إيقاف منصات الصواريخ أو تعطيلها. ومع استمرار العمليات القتالية وعجز إسرائيل عن إحراز أي تقدم أعلن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة عن القرار 1701[36] لوقف إطلاق النار بين الاحتلال الإسرائيلي وحزب الله، ومع حلول 14 آب/ أغسطس 2006 وافقت حكومة الاحتلال على وقف إطلاق النار. وحقق الحزب إثر حرب 2006 نصرًا معنويًّا كبيرًا، واكتسب تعاطفًا جماهيريا كبيرا داخليا وعربيًّا وإسلاميا، وتأزمت الأوضاع السياسية في لبنان أكثر مع تصاعد الضغوطات الأمريكية أكثر وأكثر على لبنان، وترسخت لدى الحزب قناعة بضرورة الاستحواذ على قرار الدولة اللبنانية لحماية ظهره في أروقة السياسة اللبنانية والدولية.

خامسًا: أحداث ٧ أيار وهيمنة حزب الله

عقب حرب 2006 تعقدت الأزمة السياسية في لبنان بعد أن قاطع وزراء حزب الله الحكومة واستقالوا مع امتناع قوى 14 آذار عن تشكيل حكومة تشمل حليف حزب الله ميشال عون وتياره، وفي إطار ما يراه الحزب هيمنة أمريكية على قرار حكومة السنيورة وإمعانها في تطبيق القرارين 1559 و 1701 واللذان ينصان على نزع سلاح حزب الله، انعقدت جلسة مجلس الوزراء في 5 أيار/ مايو 2008 واتخذت قرارها بملاحقة وتفكيك شبكة الاتصالات السلكية التابعة لحزب الله والتي يعتبرها الحزب ركنًا أساسيا من مقومات المقاومة وأحد أبرز عوامل النصر في حرب 2006، كما طالب النائب وليد جنبلاط بإقالة مدير أمن جهاز مطار بيروت العميد وفيق شقير كونه مقربًا من حزب الله ويلعب دورًا في بسط نفوذ الحزب في المطار، كل ذلك اعتبره الحزب قرارًا حربيا يستهدفه[37]. وتبرز أهمية شبكة الاتصالات في كونها عامل مناعة وحماية أمام التقدم والتطور التكنولوجي والاستخباراتي الإسرائيلي، ما يعني عجز إسرائيل عن التنصت على دوائر الحزب واتصالاته.

رفض الحزب هذا القرار رفضًا صريحًا حاسما وواجهه بقوة السلاح، حيث اندلعت اشتباكات بين مناصري تيار المستقبل التابع لسعد الحريري والحزب التقدمي الاشتراكي من جهة وعناصر حزب الله وحركة أمل والحزب القومي السوري من جهة أخرى، واعتبر الحزب تلك الاشتباكات "عمل دفاعي محدود وسريع يلغي التقاتل"[38] الذي كانت قوى 14 آذار تدفع نحوه على حد وصف نائب الأمين العام لحزب الله نعيم قاسم.

---

[36]- قرار 1701 بشأن وقف القتال في لبنان، الجزيرة، 12 أغسطس 2006.

[37] - نعيم قاسم ص 264.

[38] - المرجع السابق، ص 266.

حسم الحزب معارك بيروت لصالحه بشكل سريع، إلا أن الاشتباكات امتدت في 11 أيار إلى جبل لبنان معقل الدروز- الحزب التقدمي الاشتراكي، ولاحقا إلى البقاع والشمال ليسقط خلالها قتلى وجرحى، وكانت الاشتباكات تأخذ منحى طائفيا بين السنة والشيعة. ومحصلة ما حصل في 7 أيار وما بعده أن السنة اعتبروا ما حدث صفعة وهزيمة لهم أمام الشيعة الذين اعتبروه "يومًا مجيدًا من أيام المقاومة" حافظوا من خلاله على أهم سلاح للحزب، كما عبر عن ذلك حسن نصر الله[39].

الملفت في أحداث 7 أيار أنها أشعلت حربًا باردة بين قوى 14 آذار -تحديدًا تيار المستقبل- وحزب الله وحلفائه، تلك الحرب الباردة التي تخللتها اشتباكات عنيفة في مناطق عدة أبرزها في طرابلس شمال لبنان بين أتباع الحزب العربي الديمقراطي[40] في جبل محسن وسائر أحياء ومناطق طرابلس المحيطة بها (ذات الأكثرية السنية)، وقد استطاع تيار المستقبل في تلك الفترة حشد الكثير من الشباب الملتزم دينيًّا تحت مظلة الدفاع عن أهل السنة في وجه التمدد الإيراني الشيعي في البلد، وذلك بالتنسيق مع بعض الوجوه الإسلامية القديمة والتي خاضت تجربة الحرب الأهلية تحت مظلة حركة التوحيد كقائد تنظيم جند الله الشيخ كنعان ناجي[41]، والشيخ داعي الإسلام الشهال[42]. هذه الأجواء أحيت في طرابلس أجواء الحرب الأهلية في ظل سيطرة حركة التوحيد الإسلامي آنذاك، وتميزت بتوجه شباب المدينة بكثافة نحو المساجد والالتزام الديني.

هذه الأحداث وما سبقها دفعت حزب الله للمباشرة فعليًّا في اختراق الأجهزة الأمنية اللبنانية وتحديدًا جهازي مخابرات الجيش والأمن العام، وقد استطاع الحزب بسط نفوذه داخل هذه الأجهزة عبر ضباط أمنيين موالين للحزب، ما خلا جهاز الأمن الداخلي الذي يسيطر عليه ضباط موالون لتيار المستقبل[43]، كما ساعدت علاقة الحزب مع جهاز الأمن العام على استفادة الحزب من الحدود اللبنانية مع سوريا ومن مطار بيروت الدولي ومرفئها في شتى المجالات العسكرية والأمنية والاقتصادية. شبكة العلاقات الأمنية هذه يديرها وفيق صفا الذي يلعب دور مسؤول ارتباط بين الحزب والأجهزة الأمنية اللبنانية والذي شملته العقوبات الأمريكية إلى جانب نائبين في البرلمان بتهمة التورط في دعم وتسهيل أعمال الحزب[44]. وإضافة إلى اختراقه

---

[39] - حسن نصر الله، حفل التخرج الجامعي السنوي الـ21، 15 مايو 2009.

[40] - حزب سياسي لبناني موالي للنظام السوري، ذو أغلبية علوية، زعيم الحزب هو رفعت علي عيد ومقره جبل محسن في طرابلس.

[41] - أحد مؤسسي حركة التوحيد الإسلامي إلى جانب الشيخ سعيد شعبان عام 1982.

[42] - نجل الشيخ سالم الشهال أحد رواد العمل الإسلامي والدعوة السلفية في لبنان.

[43] - كيف سيطر حزب الله على مكاتب مخابرات الجيش اللبناني، الحرة، 4 مايو2020.

[44] - من هم مسؤولو حزب الله الذين عاقبتهم واشنطن؟ موقع بي بي سي، 11يوليو 2019.

الأجهزة الأمنية اللبنانية، أسس حزب الله جهازه الأمني الخاص المسمى "جهاز أمن المقاومة" والذي ينافس أجهزة الدولة كمًّا ونوعًا وبكفاءة عالية وقدرات استخباراتية وتجهيزات تقنية متقدمة[45]، بدعم وتجهيز وتدريب إيراني.

استطاع حزب الله عبر تطوير أجهزته الأمنية والعسكرية في الداخل اللبناني، واختراقه مؤسسات الدولة اللبنانية الأمنية والعسكرية، ودخوله الحكومة بالتحالف مع التيار الوطني الحر، أن يوسع نفوذه في مؤسسات الدولة ويفرض سياساته شيئًا فشيئًا، في سياسة مشابهة لتلك التي اتبعتها القوات اللبنانية بقيادة بشير الجميل زمن الحرب الأهلية، حيث كان للقوات جهازها الأمني الخاص وضباطها داخل الجيش وقوى الأمن ومخابرات الجيش (المكتب الثاني) وصولًا إلى رئاسة الجمهورية فيما بعد في تضخم كبير وسريع لم يكتب له الاستمرار عقب اغتيال بشير. أما حزب الله فتبعًا للمنهجية العقائدية التي يتبعها منتسبوه جندًا وقادة وارتباطه الوثيق بالحرس الثوري الإيراني فإنه بقي متماسكًا أمام عمليات الاغتيال التي طالت الصف الأول منه، كعباس الموسوي وعماد مغنية وغيرهم.

سادسًا: الثورة السورية وتداعياتها على المشهد اللبناني

مع انطلاقة ثورات الربيع العربي أواخر عام 2010 أيد حزب الله ثورات اليمن ومصر والبحرين وليبيا وتونس لكن وما إن اندلعت الثورة في سوريا حتى اتخذ الحزب موقفًا منحازًا للنظام السوري ورئيسه بشار الأسد ضاربًا بعرض الحائط احتجاجات السوريين ومطالبهم وحقوقهم، وهذا موقف متوقع من جهة كون النظام السوري حليف إيران وحزب الله الأول في العالم العربي، وقد لعب الدور الأكبر في تسهيل عمليات التسليح والتدريب والتكوين منذ بداية انطلاقة الحزب في ثمانينات القرن الماضي، لذا يرى الحزب أن سقوط النظام السوري وإفساح المجال أمام نظام آخر قد يحظى برضى إقليمي- دولي إنما يستهدف مصالح الحزب الاستراتيجية في المنطقة ويبني حائط سد بين إيران ولبنان، فسوريا هي الجسر الذي تمد من خلاله إيران الحزب بالصواريخ والسلاح، وفيما لو قطع هذا الطريق فلن يمكن الاستعاضة عنه بمطار بيروت ومرفئها نظرًا لسهولة إغلاقهما فيما لو اتخذ المجتمع الدولي قرارًا بالتضييق على الحزب في لبنان.

خوف حزب الله على هذه المصالح الاستراتيجية دعمته تحركات في المناطق المتاخمة للحدود مع سوريا شمالًا وشرقًا حيث المناطق ذات الأغلبية السنية (عكار وعرسال) المتعاطفة مع ثوار المعارضة السورية، فأهل

[45] -Carl Anthony Wege- The Hizballah security apparatus- perspectives on terrorism- 2008

السنة في لبنان لا زالوا يحتفظون بذكريات مؤلمة مع النظام السوري وجيشه وأفرعه الأمنية التي بطشت بهم منذ دخولها لبنان، وهم يعيشون هاجس توسع النفوذ الشيعي في لبنان ورد الاعتبار بعد صفعة 7 أيار. أثارت هذه التحركات مخاوف حزب الله من تشكل جيب سني مسلح له امتداد في العمق السوري وخطوط إمداد مفتوحة على امتداد الحدود السورية مع القرى والبلدات السنية، تقابلها تنظيمات وتجمعات سورية بعضها عبر عن توجهات جهادية تحيي لدى الحزب ذكريات التجربة العراقية مع التنظيمات الجهادية، تلك التجربة التي لم تكن قد ماتت بعد واتسمت بالعنف. ولذا يرى الحزب في وقوفه مع النظام السوري موقفًا أخلاقيا تضامنيًّا مع حليفه من جهة، وموقفًا استراتيجيًّا دفاعًا عن مواقعه المتقدمة وخطوط إمداده ومصالحه اللوجستية، فضلًا عن استتباب الوضع الداخلي لصالحه والذي تهدده التحركات السنية في الشمال والبقاع.

إحدى أبرز محطات تلك المرحلة كانت اغتيال اللواء وسام الحسن[46] رئيس شعبة المعلومات التابعة للمديرية العامة لقوى الأمن الداخلي الجهاز الأمني الوحيد الذي عجز حزب الله عن اختراقه، ويعتبر الحسن أحد أبرز الأسماء الأمنية الفاعلة في الساحة اللبنانية وهو المقرب من تيار المستقبل وزعيمه سعد الحريري. وقد أثار اغتيال الحسن غضب الشارع السني المحتقن أساساً ووُجهت أصابعُ الاتهام للنظامِ السوري، وعلى إثر ذلك اندلعت أعمال عنف وشغب في عموم لبنان.

في أيار/ مايو 2013 أعلن حسن نصر الله بشكل صريح مشاركة مقاتلي الحزب عسكريًّا في معارك القصير وقد شكلت مشاركتهم عامل الحسم في المعركة، ما أجج الشارع السني في لبنان بشكل كبير، وعاشت مدينة صيدا في الجنوب توترًا كبيرًا بين مناصري وعناصر الحزب من جهة ومناصري الشيخ أحمد الأسير إمام مسجد بلال بن رباح في منطقة عبرا- صيدا من جهة أخرى، وانتهت الأحداث باشتباكات عنيفة بين مناصري الشيخ وعناصر الحزب الذي استطاع حينها إقحام مناصري الأسير في معركة مع الجيش اللبناني عرفت لاحقًا بـ "معركة عبرا"[47]. وفي طرابلس كان الاحتقان السني في ازدياد، حيث توجه أبناء المدينة نحو شراء السلاح في ظل الاشتباكات الشهرية التي تشهدها المدينة بين الفترة والأخرى مع أتباع الحزب العربي الديمقراطي (العلويين) تتخللها أعمال قنص تطول المدنيين وعمليات اغتيال وتفجير أبرزها تفجيرات مسجدي التقوى والسلام في 23 آب/ أغسطس 2013 والتي استهدفت المصلين أثناء أداء صلاة الجمعة

46 - لبنان: تشييع جنازة وسام الحسن والمعارضة الغاضبة تدعو لمشاركة شعبية، موقع بي بي سي، 21 أكتوبر 2012.

47 - علاء الصالح، فخ عبرا، الجزيرة، 25 يونيو 2019.

وسقط ضحيتها أكثر من أربعين قتيلًا والمئات من الجرحى، وقد أثبتت التحقيقات ضلوع عناصر أمنية من النظام السوري والحزب العربي الديمقراطي في المجزرة[48].

في المقابل هزت الضاحية الجنوبية مقل حزب الله في بيروت تفجيرات دامية[49]، ومن أبرزها تفجير مزدوج وقع أمام السفارة الإيرانية في بيروت يوم 19 تشرين الثاني/أكتوبر 2013. التفجيران قتلا 23 شخصًا وجرحا 160 شخصًا آخرين، وقد ذكرت وسائل إعلام إيرانية أن الملحق الثقافي الإيراني في لبنان إبراهيم الأنصاري قد قتل في التفجير، فيما تبنت كتائب عبد الله عزام العملية[50].

ميدانيًّا كانت الحدود اللبنانية- السورية تشهد تواجد تجمعات وفصائل معارضة للنظام تحظى بدعم وتأييد السنة في لبنان، إلا أن تدخل حزب الله العسكري في معارك القصير ويبرود وريف حمص الغربي والقلمون حسم الموقف لصالح النظام واستطاع الحزب بين عامي 2013- 2017 تأمين معظم الحدود اللبنانية مع سوريا، فيما كانت الأجهزة الأمنية اللبنانية قد بدأت مطلع العام 2015 بالتضييق على اللاجئين السوريين المعارضين للنظام وملاحقتهم واعتقالهم[51]، إضافة إلى ملاحقة الشباب اللبنانيين المتعاطفين مع الثورة السورية واعتقالهم، فاعتقل المئات من أبناء طرابلس والشمال فضلًا عن عشرات من كل من صيدا وبيروت والبقاع، جميعهم بتهم الإرهاب ونصرة الثورة السورية، إضافة إلى تقارير وشهادات تتحدث عن تعذيب المعتقلين لدى الأفرع الأمنية[52]، فيما آثر آخرون عدم تسليم أنفسهم وقرروا مواجهة الجيش والقوى الأمنية فيما لو حاولوا اعتقالهم، وأدى ذلك إلى اشتباكات متفرقة في مناطق متعددة بين مطلوبين بتهمة التعاطف مع الثورة السورية والجيش اللبناني والقوى الأمنية. وكانت هذه الأجواء كلها مناسبة لتهيئة نفوس أبناء المناطق السنية الذين شعروا بالاضطهاد وضياع حقوقهم وكرامتهم على حساب سيطرة حزب الله على مفاصل الدولة ومؤسساتها، الأمر الذي ساهم في تأثر عدد منهم بالدعاية الإعلامية لتنظيم الدولة الإسلامية فاتسمت بعض المواجهات مع الجيش والقوى الأمنية بالعنف والدموية. ورغم ما سبق، فلم يكن الصف السني على خط واحد حيث برزت أسماء عدة من شخصيات سياسية متحالفة مع حزب الله والنظام السوري ضد تيار المستقبل كان أبرزهم فيصل كرامي نجل الرئيس عمر كرامي.

---

[48]- بشير مصطفى، الإعدام لمفجري مسجدي التقوى والسلام في طرابلس، الإندبندنت 3 نوفمبر 2019.

[49] - أبرز تفجيرات لبنان منذ 2012، الجزيرة، 13 نوفمبر 2015.

[50] - كتائب عبد الله عزام الجهادية تتبنى التفجيرين أمام سفارة إيران في بيروت، فرنس24، 19 نوفمبر 2013.

[51] - لبنان يحاكم سوريين بتهمة قتال ميلشيا أسد، أورينت، 3 أكتوبر 2019.

[52] - جنى دهيبي، اعتقالات بالجملة وتعذيب.. ثم البراءة، المدن، 28 أغسطس 2016.

وعلى الجانب الشيعي، خسر حزب الله إثر مشاركته في القتال في سوريا إلى جانب النظام السوري ما لا يقل عن 1600 قتيل بين عامي 2013- 2019 سقطوا في معارك متفرقة بين درعا ودمشق وريفها وحماة وحلب وإدلب ودير الزور[53] ، إلا أن نفوذه داخل مؤسسات الدولة اللبنانية قد بلغ حدًّا كبيرًا من التوسع والسيطرة، غير أن هذا التوسع والنفوذ سيحمل الحزب في المرحلة القادمة عبء الفساد المتراكم في المؤسسات الحكومية منذ أعوام.

في الشارع المسيحي كان الانقسام على أشده بين القوات والكتائب بزعامة جعجع وآل الجميل من جهة والتيار الوطني الحر بزعامة ميشال عون وتيار المردة بزعامة سليمان طوني فرنجية من جهة أخرى، وقد استطاع التيار العوني إثر تحالفه مع حزب الله دخول الحكومة والحصول منذ العام 2009 على وزارات ذات ثقل كوزارة الطاقة والمياه ووزارة الاتصالات ووزارة السياحة ووزارة التربية والتعليم العالي ووزارة الخارجية، كما برز جبران باسيل صهر العماد عون كشخصية مارونية مستفزة لجميع خصومها، فيما بدأ طرح اسمح ميشال عون لرئاسة الجمهورية يشكل محور الصراع السياسي مع الأطراف المسيحية الأخرى.

ودرزيًّا بقي الخلاف بين وليد جنبلاط وطلال أرسلان حاضرًا وبقوة، غير أن جنبلاط حافظ على تفوقه الشعبي أمام حضور ضعيف نسبيًّا لأرسلان حليف حزب الله وسوريا، أما وئام وهاب فكان له حضوره الإعلامي على الشاشات دون أي حضور شعبي منافس.

سابعًا: الانهيار الاقتصادي

في 31 تشرين الأول/ أكتوبر 2016 انتخب مجلس النواب اللبناني رئيس التيار الوطني الحر العماد ميشال عون رئيسًا للجمهورية بعد أزمة فراغ دامت 29 شهرًا، وحدث ذلك بعد منافسة شديدة بين عون والمرشحين لمنصب الرئاسة سمير جعجع وسليمان فرنجية. ورغم دعم حزب الله لحليفه عون إلا أنه لم يكن ليستطيع الفوز بالرئاسة لولا تنازل سمير جعجع لصالحه ودعوة سعد الحريري لانتخابه بحجة "الخوف على لبنان" رغم معارضة العديد من نواب كتلة المستقبل لموقف الحريري وتنازله أمام عون وحزب الله.

كان حزب الله قد بدأ يعاني من تضييق الخناق عليه إقليميًّا ودوليا إثر دوره الحاسم في معارك النظام السوري في حلب ودرعا وريف الشام، إضافة إلى دوره في اليمن وتوسع نفوذه في العراق، ما دفعه للعمل بجدية للإمساك بمفاصل النظام اللبناني، إلا أن هذه السياسة لا تقتضي السيطرة على الحكم على غرار

[53] -Martin Chulov- Censured by Britain, Hizbollah is bigger than ever in Beirut, The Guardian, 2March 2019.

حماس في غزة، فالحزب يفهم تركيبة لبنان الديمغرافية والتي تشكل عائقًا أمام سيطرة مطلقة وحكم أحادي الجانب، إلا أنه يسعى لإيصال حلفائه إلى مواقع هامة في الحكم، فضلًا عن بناء علاقات وطيدة داخل المؤسسات العسكرية والأمنية اللبنانية وتصدير شخصيات عسكرية وأمنية موالية له أو متحالفة معه، ما يتيح له الاستفادة من مرافق الدولة ومقدراتها قدر الإمكان، خاصة العلاقات الاقتصادية التي تتمتع بها الدولة اللبنانية مع الغرب والمساعدات المقدمة لها بما في ذلك المساعدات الغربية المقدمة للجيش اللبناني والتي يستفيد منها الحزب بطريقة أو بأخرى. من هنا كان قرار الحزب بالتحالف مع التيار الوطني الحر وإيصال عون إلى رئاسة الجمهورية، هذا التحالف الذي أدى لتوسع نفوذ العونيين وسيطرتهم على مفاصل عديدة من مفاصل الدولة الهامة والتي تحظى بميزانية عالية كالطاقة والمياه والتربية والتعليم على سبيل المثال لا الحصر، فضلًا عن توليهم لمناصب في القضاء والجمارك وغير ذلك. هذا التضخم المتسارع لحزب الله وحليفه عون حمّل الحزب أعباء ثقيلة أبرزها:

1- قناعة دولية بأن المساعدات التي تقدم للدولة اللبنانية تذهب نسبة كبيرة منها إلى خزينة الحزب، وأن مؤسسات الدولة ومفاصلها باتت مخترقة من قبل الحزب الذي يوظفها في تحقيق مصالحه والهروب من التضييق الاقتصادي الممارس عليه في الخارج، حتى القطاع المصرفي بات الغرب على قناعة باستخدام الحزب له في إطار دعم إيران لمواجهة العقوبات الأمريكية المفروضة عليها[54]، مما دفع بالدول الداعمة للبنان للتلويح بإيقاف الدعم الاقتصادي والهبات المالية ما لم تضع الدولة اللبنانية حدًّا لممارسات الحزب واستخدامه لمؤسساتها ومقدراتها.

2- تحميل تحالف حزب الله- عون مسؤولية الفساد (الاقتصادي- الإداري) والدين العام المتراكم على خزينة الدولة والانهيار الاقتصادي الذي بدأت البلاد تعيش تبعاته منذ العام 2019. والحقيقة أن الحزب وحده لا يتحمل مسؤولية هذه التراكمات القديمة، لكنه بسيطرته على مفاصل الحكم في هذه الظروف الاستثنائية داخليًّا وإقليميًّا ودوليًّا يضع نفسه في قفص الاتهام مع العديد من القرائن القوية التي تحمله مسؤولية الانهيار كسيطرته على المطار والمرفأ والحدود البرية والسوق السوداء بما فيها السوق المصرفية اللاشرعية وتواتر الحديث عن سحب العملة الصعبة من الأسواق وضخها في سوريا وإيران لمواجهة العقوبات الدولية على البلدين.

---

[54]- طوني بولس، كيف قوض حزب الله النظام المصرفي في لبنان لنجدة ايران، الإندبندنت، 21 نوفمبر 2019.

ومع تراكم الأزمات السياسية والاقتصادية وكثرة الحديث في الإعلام عن ملفات الفساد خاصة المتعلقة منها بملفات الطاقة والكهرباء والاتصالات والتعليم والجمارك، كان العام 2019 عام التراكمات التي أدت إلى انفجار في الشارع، إذ انعكست الأوضاع السياسية والاقتصادية على سعر صرف العملة، لتخسر الليرة اللبنانية نحو 85 بالمئة من قيمتها، والآن يجري تداولها بسعر 9 آلاف مقابل الدولار في السوق الموازية، على الرغم من ربط الدولار رسميا بمبلغ 1515 ليرة. نتيجة ذلك وجد عشرات الآلاف من اللبنانيين أنفسهم يخسرون وظائفهم أو جزءًا من رواتبهم، ما رفع معدل البطالة بحسب إحصاءات رسمية، إلى أكثر من 35%. وبسبب انهيار الليرة، تجاوز معدل التضخم نسبة 89.7 %خلال يونيو/حزيران 2020، بعد أن سجل ارتفاعًا 56.6% في مايو/أيار السابق له. كما ارتفعت تكاليف الأغذية والملابس بما يقارب 200% حسب بيانات رسمية أوردها بنك الاعتماد اللبناني (حكومي)، مما دفع المواطنين إلى توفير احتياجاتهم الأساسية عبر مقايضتها الملابس والأثاث في ظل انهيار العملة.

وتخلّف لبنان في مارس/ آذار 2020، وللمرة الأولى في تاريخه، عن تسديد مستحقات بقيمة 1.2 مليار دولار من سندات (اليوروبوندز) التي تبلغ قيمتها الإجمالية أكثر من 30 مليار دولار، ودفع ذلك الحكومة إلى اللجوء لطلب مساعدات دولية من المانحين الدوليين ومؤسسات التمويل الدولية، والتي لا تزال مترددة ومحجمة عن هذه الخطوة خشية استفادة حزب الله من هذه المساعدات والمنح نظرًا لسيطرته على قطاعات الدولة المالية. ويحدث ما سبق في ظل وقوع لبنان تحت عبء دين عام يناهز 92 مليار دولار أي ما يعادل نحو 170% من قيمة الناتج الإجمالي المحلي.

هذه الأزمات الاقتصادية المتراكمة أشعلت غضب الشارع اللبناني بمختلف أطيافه حيث احتشد المتظاهرون في الشوارع والساحات رافعين شعار "كلن يعني كلن" في إشارة إلى إسقاط كافة الطبقة السياسية التي شاركت في الحكم منذ العام 1990، غير أن مشاركة جمهور حزبي القوات والكتائب في التظاهرات ورفع شعارات ضد حزب الله حولت الساحات إلى اصطفافات سياسية ومذهبية من جديد، واتخذ جمهور حزب الله والتيار الوطني الحر موقفًا معارضًا للتظاهرات التي برأيهم تستهدف سلاح المقاومة وعهد الرئيس عون، لا الفساد كما يزعمون. ثم جاء تفجير مرفأ بيروت في 4 آب/ أغسطس 2020 ليخلق نقصًا محتملًا في السلع الأساسية وتعطلا في حركة التجارة مع العالم الخارجي. وقد أسفر الانفجار الضخم، عن سقوط 200 قتيل ونحو 5 آلاف جريح، بجانب دمار مادي هائل، وفق وزير الصحة آنذاك حمد حسن. وقد حمل الرأي العام المعارض لحزب الله مسؤولية ما حصل ، واتهم فريق 14 آذار حزب الله بالسيطرة على

المرفأ واستخدامه في شحن الذخائر والسلاح والصفقات غير المشروعة قانونيًّا، بينما نفى الحزب ذلك على لسان أمينه العام حسن نصر الله.

وإضافة إلى الغضب الداخلي، أثار انفجار مرفأ بيروت أطرافًا إقليمية ودولية في مقدمتها فرنسا بشخص رئيسها ماكرون الذي سارع لزيارة بيروت والشوارع المتضررة والمدمرة إثر التفجير، حيث جال بين المواطنين جولة رئيس بين شعبه فعانق بعضهم وكلمه البعض الآخر باللغة الفرنسية بطلاقة!

تلك المشاهد أثارت بين اللبنانيين مسألة قديمة متجددة هي: طلب المسيحيين الحماية الفرنسية، وأنهم يعتبرون أنفسهم رعايا فرنسا في المشرق، خاصة وأن معظم الأحياء والشوارع المتضررة من الانفجار هي ذات أغلبية مسيحية. كما اجتمع ماكرون بالطبقة السياسية اللبنانية فوجه إلى رموزها كلمات حادة وأخذ عليهم تعهدات بإجراء إصلاحات أساسية. وفي المقابل، وعقب زيارة ماكرون مباشرة، زار نائب الرئيس التركي، فؤاد أوكتاي، ووزير الخارجية، مولود تشاووش أوغلو، بيروت، وتجولا في شوارعها المتضررة، خاصة شوارع المسلمين منها حيث حظيا باستقبال حافل في ظل ترحيب المسلمين السنة بالزيارة على مواقع التواصل الاجتماعي. وصرح وزير الخارجية التركي، جاويش أوغلو حينها، عن استعداد بلاده لمنح الجنسية للبنانيين التركمان الراغبين بذلك، كما أعلن نائب الرئيس التركي فؤاد أقطاي استعداد تركيا لإعادة إعمار مرفأ بيروت.

لا يمكن فصل انفجار بيروت وما أعقبه من تفاعل دولي، خاصة التفاعلان التركي والفرنسي، عن الصراعات الإقليمية والدولية، فزيارة الوفدين الفرنسي والتركي تعكس بوضوح امتداد الصراع التركي- الفرنسي إلى لبنان، والتعبئة الطائفية التي عادت لتطفو على السطح من جديد، فالشيعة تدعمهم إيران، والمسيحيون يدعمهم الغرب، والسنة تلوح لهم تركيا بعد أن فقدوا الثقة بالخليج، ورغم أن هذه الاصطفافات تتخللها بعض الخروقات لتجد سنة في صف حزب الله وشيعة ضده، والانقسام المسيحي بين متحالف مع الحزب ومعارض له، إلا أنه يجدر بنا فهم ثلاث نقاط:

1- الأصوات الشيعية المعارضة للحزب لا تجد لها متنفسًا على الأرض في ظل سطوة الحزب الأمنية والعسكرية وسيطرته على القرار السياسي للشيعة وبالتالي سيطرة إيران عليه، فهو حكم بالأعم الأغلب، كذلك فيما يتعلق بالأصوات السنية المتحالفة مع الحزب إذ ليس لها أية فاعلية على أرض الواقع.

2- المسيحيون مهما اختلفوا وانقسموا يجتمعون على قضية الدفاع عن حقوق المسيحيين في المشرق ووجودهم أمام أي تحول ديمغرافي يهدد هذا الوجود، وعلى هذا الأساس تبرر جميع القوى المسيحية مواقفها بما فيها التيار الوطني الحر المتحالف مع حزب الله.

3- لا صوت يعلو فوق صوت وليد جنبلاط في الساحة الدرزية، والذي لا يمكن البناء على تحالفاته التي تشهد تقلبات كثيرة وفق المتغيرات المحيطة به، وهو ينطلق من قاعدة الحفاظ على مصالح الدروز في المنطقة في ظل صراع القوى الكبرى، وقد أشار لهذا المبدأ في تغريدة له على حسابه على موقع تويتر حين قال: "إلى بني معروف حيثما وجدوا وإلى الأهل في جبل العرب. إن أفضل طريقة في الحفاظ على الوجود والحياة والاستمرار هي في عدم التورط في لعبة الأمم والفوضى المستشرية. إنني من باب الحرص عليكم أدعوكم لعدم الانجرار للفتنة مع أهل حوران والانتباه لمكائد النظام، والتحريض الإسرائيلي الغدار".

يضاف إلى ما سبق ازدياد حركة الهجرة من لبنان سواء بالطرق الشرعية أو غير الشرعية، إذ يشهد لبنان هجرة كبيرة للكوادر الطبية والتعليمية والكفاءات العلمية مما قد يسبب أزمة مضاعفة في ظل ارتفاع إصابات وباء كورونا وعجز المرافق الصحية عن احتواء الأزمة، فضلًا عن الهجرة اللا-شرعية عبر البحر نحو أوروبا، والتي ترافقت مع ارتفاع نسبة البطالة. كما يشهد العام الدراسي الجديد صعوبات كبيرة في ظل العجز المادي وهجرة الكادر التعليمي وتعقيدات التعليم عن بعد في بلد لا تتوفر فيه شبكة الانترنت في كل منزل، وإن توفرت فبخدمة سيئة لا تساعد الطلاب على متابعة الدروس عبر البث المباشر. هذا ويتوقع أن تتضاعف المأساة مع التلويح برفع الدعم عن السلع الأساسية والأدوية الطبية والمحروقات ما يضع شريحة واسعة من اللبنانيين أمام خطر الموت البطيء إما جوعًا أو مرضًا.

الدور الفرنسي

في إطار سياسته الخارجية للظهور بمظهر الرئيس القوي وتوسيع النفوذ الفرنسي عاد ماكرون إلى لبنان ثانية ليتابع مبادرته التي أكد عليها بعد أن سلم عبر سفير بلاده في لبنان برونو فوشيه إلى الرئيسين ميشال عون ونبيه بري "ورقة أفكار" اشتملت على أربعة محاور رئيسية هي: "قضية المساعدات الإنسانية، وإعادة إعمار ما دمره انفجار المرفأ، والإصلاحات السياسية والاقتصادية الملحّة، وإجراءات مواجهة جائحة "كوفيد–19"، في طريقة هي أشبه بفرض وصاية فرنسية على لبنان دون تقديم مساعدة جدية ملموسة، واعدًا في حال التزام الطبقة السياسية بهذه المبادرة بإنقاذ لبنان وتطبيق إصلاحات، ومكافحة الفساد

ومعالجة ملف الطاقة وإعادة الإعمار وحل ملفي المساعدات الإنسانية إلى لبنان وملف صندوق النقد الدولي، ومهددًا بفرض عقوبات في حال فشلت مبادرته هذه، وقد أعطى الساسة اللبنانيين مهلة لتطبيق هذه المبادرة حتى نهاية تشرين الأول/ أكتوبر 2020.

يحاول الرئيس الفرنسي ماكرون من خلال مبادرته هذه إحياء النفوذ الفرنسي في لبنان معززًا بوجود عسكري- استخباراتي، وفيما يستغل حاجة اللبنانيين للمساعدة الملحة إلا أن ماكرون يوظف هذه الظروف في إطار الصراع الدولي- الإقليمي على الثروات الطبيعية المتنازع عليها في البحر الأبيض المتوسط، تحديدًا في وجه الطموح التركي الصاعد، لكن محاولات ماكرون هذه ومبادرته لا زالت تصطدم بالإرادة الأمريكية الرافضة لإبقاء دور حزب الله في نظام الحكم في لبنان إذ أنها تسعى لتضييق الخناق عليه أكثر فأكثر.

ملف ترسيم الحدود مع العدو الإسرائيلي[55]

أعلن رئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر 2020 عن التوصل إلى اتفاق إطاري لإطلاق مفاوضات مباشرة بين لبنان وإسرائيل لترسيم الحدود البحرية والبرية بينهما. نص الاتفاق وضعته الإدارة الأميركية، ويتولى تنفيذه مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى، ديفيد شينكر. واستغلت إسرائيل والولايات المتحدة أوضاع لبنان السياسية والاقتصادية الصعبة لدفعه إلى الموافقة على الدخول في مسار تفاوضي بشأن ترسيم حدوده البحرية ومنطقته الاقتصادية الخالصة من دون أي مرجعية أو إطار زمني أو ضمانات للوصول إلى حقوقه التي يكفلها القانون الدولي (قانون البحار في هذه الحالة)، ما يجعل من هذه المفاوضات أشبه بعملية ابتزاز، كما أن موقف الرئيس بري قد يكون متأثرًا بالعقوبات التي فرضتها الإدارة الأمريكية مؤخرًا على عدة شخصيات لبنانية شملت علي حسن خليل وزير المالية السابق، و المعاون السياسي للرئيس بري.

ثامنًا: الهاجس الأمني

في ظل كل تلك الأزمات المتراكمة فوجئ اللبنانيون في 21 آب/ أغسطس الماضي بحادثة كفتون في قضاء الكورة شمال لبنان[56]، والتي أسفرت عن مقتل ثلاثة عناصر من شرطة بلدية البلدة، ليظهر فيما بعد أن الحادثة مرتبطة بخلايا مسلحة، وعلى إثر ذلك داهم الجيش اللبناني والقوى الأمنية اللبنانية أماكن تواجد

[55] - اتفاق الإطار بين لبنان وإسرائيل لترسيم الحدود: دلالات التوقيت وطريقة الإعلان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2020

[56] - جريمة مروعة في كفتون، النهار، 22 أغسطس 2020.

عناصر هذه الخلايا تباعًا في البداوي بطرابلس وفي وادي خالد- عكار قرب الحدود مع سوريا حيث اندلعت اشتباكات عنيفة دامت لساعات قبل أن يحسم الجيش اللبناني المعركة[57].

لكن المثير للجدل في هذه الحادثة ما سبقها قبل أشهر من حديث عن عمل أمني لمجموعات مسلحة يعد له في شمال لبنان، مع تحذير ناشطين إسلاميين من تسهيل بعض الأجهزة الأمنية اللبنانية لمجموعات ذات صلات بتنظيم الدولة الإسلامية عمليات التسليح والتمويل، ذلك أنها تجري على مرأى ومسمع هذه الأجهزة الأمنية مستفيدة من الحدود اللبنانية السورية في الشمال والتي تخضع لسيطرة النظام السوري بشكل كامل إذ لا تواجد لتنظيم الدولة أو أي فصيل آخر في الطرف السوري من تلك المنطقة، ما يطرح فرضية تغذية الأجهزة الأمنية لهذه المجموعات لاستغلالها عند الحاجة وترهيب الشارع الناقم على الطلقة السياسية وتخويفه من خطر الإرهاب.

كما شهد سوق السلاح حركة نشطة في الآونة الأخيرة، مع استعراضات عسكرية لعشائر البقاع الشيعية بالسلاح المتوسط والصواريخ قصيرة المدى، وبرز حديث سعد الحريري على حسابه بتويتر عن خشيته من حرب أهلية قائلًا: "أخشى من حرب أهلية، لأن ما يحصل من تسليح وعروض عسكرية في معظم شوارع بيروت وبالأمس في بعلبك الهرمل يمثل انهيار الدولة، وكل التوجه يشير إلى انهيار الدولة".

يبقى الهاجس الأمني ورقة ضغط في يد الأطراف المتنازعة، بل يمكن القول أن لبنان لم يشهد استقرارًا بالمعنى الفعلي، خاصة مع تسلح كافة الأحزاب والجماعات -وإن كان بشكل متفاوت- مما يجعل من كل احتدام سياسي مدخلًا محتملًا نحو صراع عسكري طال أم قصر (7 أيار نموذجًا) فيأخذ بطبيعة الحال وتبعًا للاصطفافات طابعًا مذهبيًّا ويضع البلد عند حافة الحرب الأهلية من جديد.

الخاتمة

من الصعب التكهن بما سيشهده المشهد اللبناني مستقبلًا نظرًا لكثرة الأطراف المتصارعة فيه وتعارض مصالح وسياسات القوى الإقليمية والدولية حوله، إلا أن المؤكد أن لبنان لم ولن يشهد استقرارًا يتيح فرصة أمام نهضة وازدهار البلد، هذا ما يؤكده تاريخ لبنان في مختلف مراحله المتعاقبة، فهو وإن شهد مرحلة استقرار جزئي إلا أنه لا يلبث أن ينهار بفعل موقعه الجيوسياسي الحساس في منطقة الشرق

[57] - جنى دهيبي، قوى الأمن تعلن إبادة خلية دواعش في وادي خالد، جريدة المدن، 27سبتمبر 2020.

الأوسط، وتزاحم الطوائف والأقليات التي تعيش كل منها هاجس الخوف على المصير والحفاظ على الوجود وتحقيق ما أمكن من المصالح.

كما أن احتدام الصراع السياسي لا يرجح اندلاع صراع عسكري مفتوح على غرار الحرب الأهلية اللبنانية إذ أن اللبنانيين لم ينسوا ويلات تلك الحرب وما ألحقته بجميع الطوائف من خسائر ومآسٍ، وهذا يفسر تغير خارطة التحالفات السياسية في لبنان باستمرار حيث تحاول جميع القوى تفادي الانزلاق نحو الحرب معتمدة على المناورة السياسية، إلا أن الخيار العسكري يبقى احتمالًا واردًا في ظل التفلت الأمني وحركة التسلح النشطة لدى جميع الطوائف والأحزاب.

يبقى أن الاحتقان الطائفي وتضخم طرف وتسلطه على سائر الأطراف بالترهيب والسلاح يشكل على الدوام فتيل انفجار يمكن أن يشتعل في أي وقت، فما الحرب الأهلية إلا نتيجة للاحتقان المتزايد بين القوى المسيحية (الجبهة اللبنانية) والقوى المسلمة (الفدائيون الفلسطينيون والأحزاب اليسارية)، حيث يتكرر هذا الواقع اليوم بفعل تضخم حزب الله وحلفائه على حساب بقية الأحزاب والطوائف خاصة ما يعيشه السنة تحت وطأة الشعور بالاستضعاف وضياع الحقوق. وهو ما يربط تطورات المشهد اللبناني بمستجدات المشهد الدولي والإقليمي.